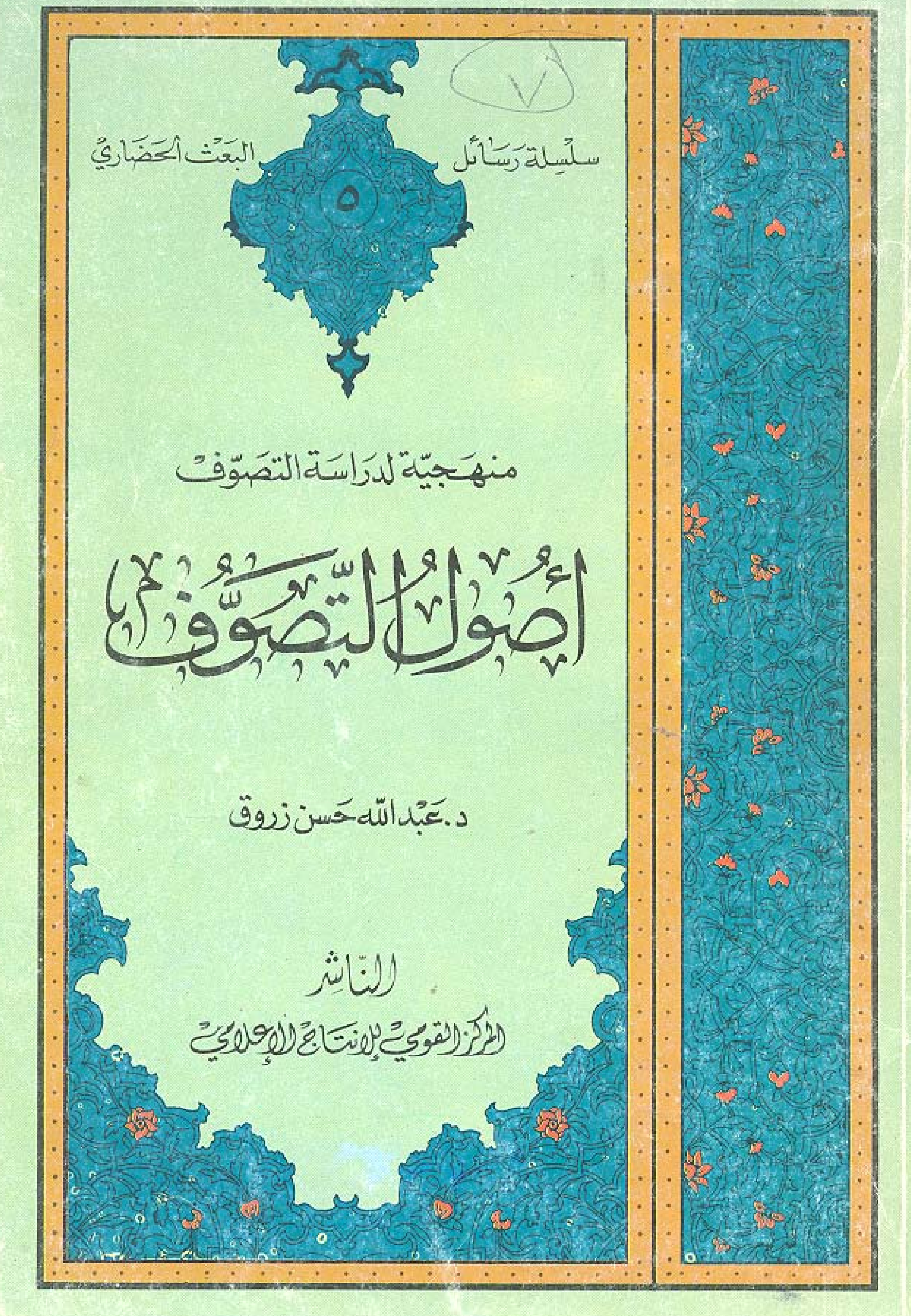


سلسلة رسائل البعث الحضاري
٥
منهجية لدراسة التصوف
أصول التصوف
د. عبد الله حسن زروق
الناشر
المركز القومي للإنتاج الإعلامي

أُصُولُ التَّصَوُّفِ

سلسلة رسائل البعث الحضاري

(٥)

منهجية لدراسة التصوف

أصول التصوف

د. عبد الله حسن زروق

مطبوعات

الحركة الإسلامية الطلابية

إبريل ١٩٩٥م - ذو القعدة ١٤١٥هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

هذا الكتاب كأنه تتمة لما نشره المؤلف سابقا عن قضايا التصوف الاسلامي، ولكنه مع ذلك يحتوي علي اضافات هامة في المادة والمنهج قاده اليها انشغال طويل بالفلسفة والتصوف وتدريسهما لطلاب التخصص والعموم، فالكتاب يبحث عن «منهجية» رشيدة لدراسة التصوف، وهو بالطبع ليس مع الظاهرة وهو ليس ضدها ولكنه دارس ينشد الحق والعدل ويرجو نصرة المسلمين ووحدتهم، وهو - مستندا علي نصوص الكتاب والسنة، ومسترشدا بالمنطق - يحاول ان يحدد قضايا التصوف ويرتبها ويورد المطاعن والمحامد، ويذكر الحجة ويردها او يعدلها وفقا للخبر الصحيح دون تعصب لمذهب او نصرة لنحلة دون اخري. فهو كتاب علمي رصين ليس فيه مجال للهرج او التراشق بالالفاظ على النحو الذي ظلت تعالج به قضايا التصوف في كثير من الاحيان.

هذا، ولعل بعض المتعجلين، البراغماتيين، الذين يبحثون عن «الجدوي النقدية» لكل فكرة او خاطرة، ولعل «الحركيين» المشفقين علي مستقبل الاسلام ومصير المسلمين، لعلهم جميعا يسألوننا - ماجدوى كتاب آخر عن قضايا التصوف ومناهجه؟ اليس يكفينا الجدل العقيم المتطاول بين اهل التصوف وخصومه؟ انريد ان نحرك من جديد ذات المعارك الداخلية الهامشية؟ الا يكفينا ما نحن فيه من معارك شرسة يشنها خصوم الاسلام الحقيقيون؟ الا نري مايراد بنا نحن المسلمين - متصوفة وغير متصوفة - في فلسطين وفي آسيا الوسطي وفي مشارق الارض ومغاربها؟

ونقول معهم نعم - يكفينا ذلك وزيادة، ولكن - ومع كل ذلك - فان القضايا التي يثيرها التصوف - ويتعرض لها هذا الكتاب - ليست بعيدة عن قضية المسلمين الراهنة - بل هي جد وثيقة الصلة بالمعارك الرئيسية التي تدور فوق رؤوسهم الآن أليست تشن علينا الغارة بعد الغارة لأننا مانزال نحب الرسول صلي الله عليه وسلم ونتمسك بالرسالة ونود ان نقيم علي ذلك الحب اصول العقيدة واصول المجتمع؟ اليست الخلاوي والزوايا والذكر والزهد هي التي ظلت تغذي روح الجهاد فينا وتحرضنا علي مقاومة اعدائنا؟ ألسنا نعد من اجل ذلك اصوليين متطرفين؟ نعم بلا شك، فالمسلمون لم يخوضوا معركة وينجحوا فيها الا بعد ان نصروا الله في

انفسهم فنصرهم الله علي عدوهم، فحماية الاوطان لاتبدأ في الجغرافيا وانما تبدأ في النفس، وبناء الامم لايكون في الفضاء وانما يكون في القلوب، وها هنا تلتقي السياسة بالتصوف، ويتعاضد فرسان النهار برهبان الليل في نصرة الرسالة الواحدة - هذا يدفع من الخارج وذاك يدفع من الداخل، والله يدافع عنهما معا من فوق ومن تحت، جهاد علي جهاد ونور علي نور «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور».

وقضية اخري لابد من ايرادها، وهي قضية تخص حركة البعث الاسلامي الحديثة، ان هذه الحركة - من كابول الي كيب تاون ومن كلفورنيا الي طوكيو - يدفعها هم اساسي واحد هو اعادة بناء الامة الاسلامية، ومن اجل ذلك فنحن نري انه يتوجب علينا اعادة النظر في قضايا التصوف وفي مناهج المتصوفين، اي اننا نري ان التغيير الاسلامي المرتقب مرتبط - بصورة ما - بالتصوف! ذلك لأن افكار المتصوفة واذواقهم وانماط سلوكهم ظلت تمثل عنصرا هاما في النسيج الاجتماعي لأغلب مجتمعات المسلمين ولقرون عديدة فاذا اريد تحويل هذه المجتمعات او تثويرها فلابد اولا من «تحليلها» للتعرف علي الخيوط النفسية الرفيعة التي بنيت عليها، والمفاهيم الدقيقة التي اندرجت في تكوينها العقلي وصارت تسهم - سلبا او ايجابا - بنصيب وافر في اصول اعتقادها وفي باطن ذوقها وظاهر سلوكها، حتي اذا تيسرت الاسباب الموضوعية للاصلاح ولاعادة البناء بالذرائع السلطانية، اعيد البناء وقد اتضحت «خريطة» الامة النفسية واستبانت خواص «التربة» الاجتماعية، فيمكن لدين الحق ان يتمكن في الارض ويمكن لدورة الحضارة الاسلامية ان تبدأ من جديد.

وهذا المؤلف: الدكتور عبد الله حسن زروق، كاتب جمّ الادب، هادئ الطبع، قرأ الفلسفة بجامعة الخرطوم ثم بجامعة لندن ببريطانيا، ولكن مظهره لاينم عن شئ مما قد تراه عالقا بمن تخرج في مثل هذه المؤسسات التعليمية من ابناء المستعمرات البريطانية السابقة، بل ان سمته وصمته يوحي لك بأنه صوفي يتخندق في الثلث الاخير من الليل غير أبه لذم او راغب في مدح، ولذلك عندما صدر له كتابه الاول عن «قضايا التصوف الاسلامي» عن دار الفكر بالخرطوم عام ١٩٨٥م لم تصحبه ضجة ولا دعاية، بل ان الكتاب قد خلا تماما من اي تعريف بالمؤلف ولم تنشر عنه اية مراجعة في صحيفة او مجلة - فيما اعلم - ولو انك تعجلت الحكم لقلت ان هذا الكاتب الصامت سيقابل كتابه بالصمت ولكن من الصمتماينفع، فقد

قرئ الكتاب ونفدت طبعته الاولي منذ زمن من المكتبات، قرأه المتصوفون – فيما اظن – دون معرفة سابقة بصاحبه او بميوله المذهبية او السياسية، وقرأه خصوم المتصوفة وقرأه طلاب العلم ممن لهم اهتمام بقضايا الفكر الاسلامي عموما، فاستحسنوه واستزادوا منه، ونحن لذلك ننشر هذه الزيادة ونشعر بالرضي.

د. التجاني عبد القادر حامد

جامعة الخرطوم – كلية الإقتصاد

مقدمة المؤلف

كنت قد قمت ببعض الدراسات في مجال التصوف فكتبت مقالا، ثم كتابا، والان بعد ان مضت ست سنوات منذ ان نشرت كتابي «قضايا التصوف الاسلامي» رأيت من الافضل تركيز البحث في هذا المجال علي تحديد منهجية لدراسة التصوف والاهتمام بأصول التصوف قبل الفروع وبالقضايا الكلية قبل القضايا الجزئية. ودافعي لكتابة هذه الرسالة هو توحيد كلمة المسلمين حول منهجية معينة لدراسة التصوف ومن ثم توحيد المواقف حياله بقدر الامكان، وليست هناك وسيلة افضل لجمع الكلمة من الرجوع لنصوص كتاب الله وسنة رسوله، والاتفاق علي منهج لفهم هذا التصوف ولكن اذا لم يكن هنالك اتفاق علي كل مسألة من مسائل التصوف فانه يجب التفاهم علي مايجوز الاختلاف فيه. يقول الله تعالي (واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا) «آل عمران، ١٠٣» ويقول تعالى (فان تنازعتم في شئ فردوه الي الله والرسول) «النساء ٥٩».

وأول امر ابدأ به هو انه ينبغي علي المتحدث في عقائد المتصوفة وممارستهم ان يكون علي علم بهذه العقائد والممارسات، وان لايخوض في الحديث فيها قبل ان يحددها تحديدا علميا دقيقا، وان يكون علي استعداد لتطبيق هذه المعايير علي اقواله عن التصوف بالفعل. ان العلم بمعتقدات المتصوفة وممارستهم يكون بقراءة كتبهم، او سماع احاديثهم، او مشاهدة سلوكهم. اما الحكم الصحيح علي اقوالهم فيجب ان يستنبط من الكتاب والسنة، وان يكون موافقا للمنطق السليم. فاذا حكم الفرد خلاف ذلك فاما ان يكون حكمه ناتجا عن جهل وسوء فهم، او تعصب، او تقليد، او تربية علمية ذات نظرة ضيقة لاتعطي للرأي المخالف احتمال ان يكون صحيحا، لأن الامور المختلف فيها قد لاتكون من الامور قطعية الثبوت قطعية الادلة. من ناحية اخري قد يعرف الانسان الحكم الصحيح ولكنه قد لايعدل في واقع الامر عندما ينطق او يكتب في مسألة من مسائل التصوف، والسبب في ذلك قد يكون عداوته للتصوف والمتصوفة. او محبته لهم، او لمصلحة او لهوى. وقد امرنا الشارع ان نعدل في القول، قال تعالي: (واذا قلتم فاعدلوا) «الانعام،١٥٢» وان لا نتأثر في حكمنا بدافع العداوة او المحبة او المصلحة او الهوى يقول تعالي: (يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو علي انفسكم) «النساء،١٣٥».

وتجدر الاشارة في هذه المقدمة الي اني قد حاولت ان اضمن هذه الرسالة بعض نتائج بحوثي السابقة التي اعتبرها هامة، خاصة في فصل قضايا التصوف فنقلت منها بعض الاجزاء وكان غرضي من ذلك ان اتيح الفرصة لمن لم يطلع علي تلك البحوث الاستفادة من ما حوت من افكار، ولكني بالطبع لا استطيع نقل كل شئ، ولقد نقلت ايضا فقرات من كتابات بعض الدارسين فاليهم اتقدم بالشكر.

د. عبدالله حسن زروق

اهمــية دراســة التصوف:

هناك عدة اسباب تعطي دراسة التصوف اهمية خاصة نذكر فيما يلي عددا منها:

١/ ان التصوف يمثل جزءاً هاماً من تراث المسلمين لايمكن اهمال دراسته، كما وان فهم التراث الاسلامي بعامة يعتمد الي حد كبير على فهم التراث الصوفي، لان جانبا كبيرا من هذا التراث كان رد فعل للفكر الصوفي.

٢/ ان التصوف مايزال يمثل طريقة تدين لكثير من المسلمين اليوم، ولانكاد نجد بلدا او مجتمعا من مجتمعات المسلمين غير متاثر به. فاذا اردنا ان نقيم معتقدات وممارسات هذه المجتمعات ونبين جوانب الخطأ والصواب فيها، ومواطن القوة والضعف بالنسبة لها، ونبين مايمكن الاستفادة منه، وماينبغي اصلاحه، فان ذلك لايمكن ان يتم الا بمعرفة ودراسة معتقدات وممارسات تلك المجتمعات.

٣/ يعتبر الكثيرون ان التصوف يمثل الجانب الروحي في الاسلام جانب العبادة والنسك والتبتل وهو الجانب الذي يسمو به الانسان الي اعلي مراتب الكمال، وهذه المرتبة تعني عند بعضهم ان يكون الانسان قابلا لكي تحل فيه الذات الالهية او ان يتحد بها او ان يصير انسانا كاملا.

٤/ كما يعتبرونه السبيل الوحيد الذي به يمكن للانسان ان يحقق سعادته وذاته واشواقه العميقة.

٥/ ان في التصوف طبا للنفوس ودواء لها «من الكبرياء والحسد والانانية والخوف» وبه تتم صحة الانسان النفسية.

٦/ للتصوف جاذبية كبيرة لكثير من الناس في المجتمعات الاسلامية والغربية علي حد سواء فهو ملاذ لهم جميعا من سطوة مادية العصر الحديث التي طغت علي كل شئ، انه ملاذ لهم لانه يدعو الي الزهد في الحياة المادية ولكن وان كان التصوف يجذب كثيرا من الناس فان القطاع الاعظم تهيمن عليه الرغبة في ان يستمتع بجانب الحياة المادي، اذن فالحل ليس في الزهد الكامل في الماديات وليس من ناحية اخري في الانغماس الكلي فيها وانما الحل في الموازنة التي نجدها في الاسلام بين متطلبات الجسد واشواق الروح، فقد كان الرسول صلي الله عليه وسلم وصحابته يجاهدون الكفار ويقضون بين الناس ويسعون للرزق، ويعبدون الله، فقد كانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار وقد تعبد الرسول صلي الله عليه وسلم حتي

تورمت قدماه وجاهد وحارب حتي كسرت ثناياه.

تجدر الاشارة الي ان هذه النظرة الي الاسلام صارت لها جاذبية لاعداد كبيرة من الذين بدأوا يدخلون الاسلام، فجاذبية الاسلام عند هؤلاء في شموليته ووسطيته وتوازنه وواقعيته.

٧/ وكثير من المتمردين علي النظرة العقلانية والتجريبية التي هيمنت علي الفكر المعاصر يجدون فيه ملاذا ايضا.

٨/ عني المتصوفة كما اسلفنا بالجانب الروحاني والوجداني والباطني والذوقي في حين اهتم غيرهم من الفقهاء بالاحكام الظاهرة للدين واهتم الفلاسفة والمتكلمون بالجانب العقلي.

٩/ يري البعض ان المنهج الصوفي هو المنهج الوحيد الذي يقود الي معرفة اسرار الوجود واعماق النفس البشرية وخفاياها.

١٠/ يمثل التصوف جانبا مهما من جوانب الدين الاسلامي هو ذلك الذي يهتم باصلاح القلب والنفس وتجريد النية واخلاص العمل لله، والذي يهتم بالعبادات الباطنة كالتوكل والصبر والشكر والمحبة والخوف والرجاء والرضي، والذي يحاول ان يعرف عيوب النفس وامراضها كالرياء والكبر والانانية والحسد والغضب ويسعي لوضع العلاج الناجع لهذه الامراض، وهو كذلك الجانب الذي يحث علي الذكر الدائم وعلي مجاهدة النفس ومقاومة شهواتها وجعلها تزهد في متاع الحياة الدنيا الزائل وترغب وتتطلع إلي نعيم الآخرة الدائم، هذا الجانب الذي يذكرنا بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار وانها لاتصفو لاحد ويذكرنا بالموت وعذاب القبر والصراط والحساب والنار ويرغبنا في لذات الجنة ونعيمها الذي لاينقطع ومتعة النظر الي وجه الله الكريم بجلاله وجماله وعظمته والذي يرغبنا في رضوان الله الكبير (ورضوان من الله اكبر) «التوبة، ٧٢».

وهذا الجانب من جوانب الاسلام مهم ومكمل لجانب العقيدة والمعاملات.

١١/ بجانب هذا كله فان دراسة التصوف وخاصة الجوانب السلبية وجوانب الانحراف فيه ونقد هذه الجوانب وبيان خطئها «كنظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والانسان الكامل ووحدة الاديان وترك السعي ورفع التكاليف والتي سنذكرها في حديثنا عن مواطن الضعف في التصوف» لها اهمية كبري في حماية العقيدة ووقايتها من الزلل والانحراف.

١٢/ كما يمكن اعتبار اتجاهات بعض المتصوفة هربا من متطلبات الحياة

الصعبة – حياة الاسرة والعمل وما يتصل بهما من مشكلات وصعوبات، وهربا من ابتلاءات العمل العام ومجاهداته، ان المخاطر التي تنجم من خوض غمار الحياة تجعل كثيرين من المتدينين يؤثرون السلامة ويتجهون الي حياة التصوف والعزلة بالرغم من أن حياة التصوف تتطلب الي حد كبير من المتقيد بها الالتزام بسلوك صارم يحتاج منه الي ارادة وعزم ومجاهدة.

١٣/ يجد بعض الناس في بعض اتجاهات التصوف فرصة للتحلل من القوانين الشرعية.

١٤/ يجد بعض القادة والسياسيين وكبار موظفي الخدمة المدنية وغيرهم من عامة الناس في التصوف ملاذا يلوذون فيه الي مشايخ الصوفية بالليل يكفرون فيه عما يحدثون ويقترفون من اذى وبطش في النهار ويتوهمون بذلك انهم يجمعون بين خيري الدنيا والآخرة.

١٥/ كما وان للتصوف اهمية سياسية لأن بعض القادة السياسيين لهم طرق ينتمون اليها، وللمشايخ سلطان وتأثير عليهم.

١٦/ كما يلجأ البعض الي حياة التصوف والعزلة بعد تجربة غير ناجحة في الحياة العامة، قد تكون التجربة مثلا في مجال الحكم او في مخالطة الناس عموما فيبدو له التوفيق بين العمل العام ومخالطة البشر والايفاء والالتزام بالمبادئ الاسلامية امرا مستحيلا فيؤثر الوفاء بالمبادئ الاسلامية. ويعبر عن هذا الوفاء باتخاذ التصوف والعزلة طريقا لذلك.

١٧/ يجد البعض في التصوف طريقا للكسب اسهل ويجدون فيه اتباعا يخدمونهم ويحققون لهم حاجتهم ورغباتهم ويجلّونهم ويحترمونهم ويعطونهم مكانة عظيمة.

١٨/ يجد فيه اصحاب النزعة الفردية – غير الجماعية – بغيتهم.

١٩/ كما يجد فيه الافراد الذين يميلون الي التبعية وعدم تحمل المسؤولية بغيتهم.

٢٠/ يحوي التصوف من غرائب الاحاديث والتجارب ودقائق المعارف والعلوم وغوامضها مايجذب كثيرا من الناس.

فمجمل القول ان اهمية التصوف في انه طريقة تتدين بها قطاعات كبيرة من المسلمين وان له جاذبية خاصة – وان له محاسن ومساوئ ينبغي ان تبين للمنتمي وغير المنتمي، والذي يود ان ينتمي عن فهم.

اصـــناف الدارســـين للتصـــوف:

لقد ذكرت في بحث لي بعنوان «قضايا التصوف الاسلامي» ان هنالك اربعة انواع من الدارسين للتصوف، نوع متحامل علي التصوف تحاملا كاملا، ونوع متعاطف معه تعاطفا كاملا ، ونوع محايد يحاول ان يقضي ويحكم بانصاف وعدل وفق قانون الشرع واذا اتفق ان حكم للتصوف مرة او حكم عليه مرة اخري فان ذلك لا يضيره، ولو وصف في نهاية الامر بأنه من اعداء التصوف او من انصاره فان ذلك لايضيره. كما وانه لايضيره اذا اسقط لفظ التصوف من قاموس الفكر الاسلامي مادامت الافكار التي تعرف بأنها افكار صوفية وتتفق مع عقيدة الاسلام، قد اعترف بها ورد اليه اعتبارها وتبوأت مكانها في الفكر الاسلامي [1] .

والنوع الرابع الذي ذكرته هو ما اسميته بالاتجاه الاكاديمي فهذا الاتجاه يهتم بالتصوف كظاهرة فكرية او فلسفية ويهتم باصالة افكاره واسباب نشأتها وعمقها وترابطها المنطقي ومصداقيتها حسب معايير عقلية ووجدانية معينة ولايهمه كثيرا تحليلها والحكم عليها بمعايير اسلامية.

اتجــا هات دعــاة الاســـلام وظـــا هرة التصـــوف

الاتجاه الاصلاحي:

يهدف اصحاب هذا الاتجاه من دعاة الاسلام الي اصلاح عقائد وممارسات المتصوفة. وعادة مايكون اسلوبهم في التغيير ليس بشن حرب كاملة علي التصوف او مواجهة مباشرة معه وغالباً مايعترفون في التعامل معه بأنه يحوي ماهو حسن وجميل بجانب ماهو رديئ وسيئ ويبدنهم في احداث التغيير المجادلة الحسنة والدعوة بالرفق والحكمة دون مجاراة لباطل، فيختارون لاحداث التأثير الطرق المناسبة والظروف المواتية وقصدهم في نهاية المطاف ان يصوغوا شخصية المتصوفة صياغة جديدة محتفظة بصفاتها الايجابية متخلية عن صفاتها السلبية.

---

(١) عبد الله حسن زروق، مجلة الفكر الاسلامي، قضايا التصوف الاسلامي، «ص٦٦-٦٧»

اتجـاه المواجهــــه:

يشن اصحاب هذا الاتجاه حربا شعواء علي التصوف واتباعه لأنهم لايرون فيه شيئا حسنا ويعتبرونه كله ضلالا، ومعنى الاصلاح عندهم، اذا جاز ان نسميه اصلاحا، اصلاح جذري يقوض كل المعتقد والممارسة. ويرون ان ظاهرة التصوف تمثل الانحراف الاساسي في المجتمعات الاسلامية المعاصرة، فينبغي محاربة هذه الظاهرة وعدم المساومة في ذلك. كما يرون ان محاربة التصوف ينبغي ان تكون نقطة الانطلاق والهدف الاساسي في أصلاح المجتمعات المسلمة.

اتجـاه القبول:

وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالتصوف ويمارسون نشاطاته وهم عادة لايتحدثون عن سلبيات التصوف ويتجاهلونها مع علمهم بها. وكذلك لاتخفي عليهم ممارسات اتباعهم الخاطئة لكنهم لاينتقدونها. والسبب في ذلك اما فقدانهم الشجاعة لمواجهتها او خوفهم من ان النقد يهز معتقد المريدين ويضعف ولاءهم. من ناحية اخري فان منهم من يقبل المعتقد المنحرف علي اساس تأويل النصوص تأويلا فاسدا لسوء فهمه او لسوء قصده.

اتجاهـات اخــري:

هنالك اتجاهات اخري لها مواقف من التصوف منها الاتجاه المتسامح الذي يري انه من حق الفكر الصوفي والثقافة الصوفية ان يكون لها وجود في المجتمع كما لجميع الوان الثقافات الاخري حق البقاء. واصحاب هذا الاتجاه يؤمنون بنسبية الثقافة وتعددها.

وهنالك من قد لايؤمن بتعددية الثقافةويري وجوب هيمنة ثقافة معينة ولكنه لايري في التصوف تهديدا لمصالحه وهيمنته بل قد يرى فيه عنصرا مساعدا في تحقيق اهدافه.

ويمكن ان تصنف المواقف حيال التصوف بطريقة اكثر دقة ولكنها ستكون اكثر تعقيدا وبذلك قد يصعب علي القارئ ان يميز بينها.

اتجـــاهات التصـــوف

ما يعرف بالتصوف ليس مذهبا ولكنه في حقيقة الامر مجموعة من الافكار والمذاهب التي كثيرا ما تكون متناقضة او على اقل تقدير متباينة فالكلام عنه كشيء واحد غير ممكن (٢) وليس من العدل ان نصدر احكاما عاما وكلية عنه.

لقد صنفت المتصوفه الي ثلاثه اصناف (٣) اتجاه سني يمكن تسميته بالتصوف الحق والذي يتطابق تطابقا كاملا مع العقيدة الاسلامية (٤) وقلت ان هذا الاتجاه قد يتعذر وجوده في الواقع(٥).

ويمكن القول ان كل من تحدث في امور تعارف الناس علي انها من موضوعات التصوف كالزهد والعزلة والاحوال والمقامات (كالتوكل والمحبة والرضي) والكشف والالهام والولاية والكرامة وكان ملتزما بالكتاب والسنة فيما يقول ويمارس ، يمكن ان نصف علمه وممارسته بالتصوف الحق.

يقول الجنيد (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الامر) «التصوف» لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة (٦) وقال (الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى اثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقه) (٧) ويمكن ان نعتبر بعض علماء المسلمين ممن لايعتبرون عادة من اهل التصوف كابن القيم من اهل التصوف الحق ويمكن ان نعتبر بعض كتبه التي تتحدث عن بعض الموضوعات المشار اليها كتبا في التصوف الحق مثل كتابه (مدارج السالكين) وكتابه «عدة الصابرين وذخيرة السالكين» و (طريق الهجرتين) وكذلك يمكن ان نعتبر كتب ابن تيمية (كالتحفة العراقية في اعمال القلوب) و «السلوك» من كتب التصوف الحق .

وذكرت أيضا ان هناك اتجاها منافيا لعقيدة الاسلام وشريعته وهذا الاتجاه تمثله الفرق الباطنية ، والمغالية والمنحرفة عن الاسلام ومذاهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

---

(٢) مجلة الفكر الاسلامي ص ٦٥

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه

(٥) المصدر نفسه.

(٦) حكم ابن عطاء الله ص ٣٤

(٧) المصدر نفسه .

والآن اود ان اتناول موضوع التصنيف هذا بشيء من التفصيل اكثر وسأستعرض تصنيفات ابن تيمية ثم اخلص في نهاية الامر الي تصنيف عام.

قسم ابن تيمية المتصوفة الي ثلاثه «٨».

١/ صوفية الحقائق . وقال : يشترط في هؤلاء، ثلاثة شروط : احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض، ويتجنبون المحارم والثاني التأدب بأداب اهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات والثالث ان لايكون احدهم متمسكا بفضول الدنيا وقال فاما ما كان جامعا للمال او كان غير متخلق بالاخلاق المحموده ولا يتأدب بالآداب الشرعية او كان فاسقا فإنه لايستحق ذلك.

٢/ صوفية الرسم الذين همهم اللباس ويهتمون بالمظهر دون الجوهر والحقيقة، وقد يقومون ببعض اعمال المتصوفه فيظنهم الجاهل انهم منهم ولكنهم في الحقيقة ليسوا منهم.

٣/ صوفية الأرزاق وهم الذين وقفت عليهم الوقوف.

وصنفهم تصنيفاً آخر فقال منهم :

١/ السابق للخيرات

٢/ المقتصد.

٣/ الظالم لنفسه .

وقال ان كلا الصنفين الاول والثاني منهم من يجتهد فيخطيء ومنهم من يذنب فيتوب او لا يتوب . ولكنه لم يذكر في هذا الموضع ما يميز السابق عن المقتصد . وقال ان الظالمين لانفسهم ينتسب اليهم اهل البدع والزندقة وقال ان هؤلاء عند التحقيق ليسوا من اهل التصوف.

ولقد صنفهم في كتابه العبودية (٩) حسب احوال الفناء التي تحصل لهم الي اصحاب فناء الارادة وفناء الشهود وفناء الوجود فقال «ان الفناء ثلاثة انواع : فناء الكاملين من الانبياء والاولياء، وفناء القاصدين من الاولياء والصالحين، وفناء الملحدين المشبهين».

فأما الاول فهو الفناء عن ارادة ما سوى الله بحيث لايحب الا الله ولايعبد الا اياه ولا يتوكل الا عليه . وكمال العبد ان لا يريد ولا يحب ولايرضى الا ما اراد الله ورضيه، وهو ما امر به امر ايجاب او استحباب . والنوع الثاني من انواع الفناء

---

(٨) مجموعة الفتاوي الجزء الحادي عشر (التصوف ، ابن تيمية ، ص ١٩)

(٩) ابن تيمية العبودية ص ١٤٤ – ١٥٥.

الفناء عن شهود السوي وهذا يحصل لكثير من السالكين فإنه لفرط انجذاب قلوبهم الي ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف قلوبهم ان تشهد غير ما تعبد.. واذا قوي هذا ضعف المحب حتي يضطرب في تمييزه فقد يظن انه محبوبه كما يذكر ان رجلا القي نفسه في اليم فالقي محبة نفسه خلفه فقال : انا وقعت فما اوقعك خلفي ؟ قال : غبت بك عني فظننت انك انى . وهذا الموضع زلت فيه اقوام وظنوا انه اتحاد .. واكابر الاولياء كابي بكر وعمر والسابقين الاولين من المهاجرين والانصار لم يقعوا في هذا الفناء .. فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا اكمل واقوى واثبت في الاحوال الايمانية من أن تغيب عقولهم او يحصل لهم غشي او ضعف وسكر او فناء او وله او جنون .. وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه حتي يقول في تلك الحال من الاقوال ما اذا صحا عرف انه غالط فيه (١٠)..

أما النوع الثالث مما يسمي فناء الوجود فهو ان يشهد أن لاموجود الا الله وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء اهل الضلال والالحاد الواقعين في الحلول والاتحاد (١١).

وتحدث ابن تيمية ايضا عن اصحاب الاحوال من المتصوفة في كتابه «التصوف» فقال : هؤلاء ترد عليهم امور علي قلوبهم ، فلا يستطيعون تحملها لضعف في قلوبهم ونفوسهم فتحدث لهم غيبة او سكر او ضعف وغيبة عقل وفناء فاذا لم يكن السبب محظورا كسماع القرآن السماع الشرعي ولم يفرط في ترك ما يوجد له ذلك ، ونحو ذلك من الامور التي تصيب العقل بغير اختيار صاحبها ، فاذا لم يكن السبب محظورا لم يكن السكر مذموما بل معذورا ، فالسكران بلا تمييز . (وقال) لم يأذن الله ان تمتع قلوبنا ولا ارواحنا من لذات الايمان ولا غيرها بما يذهب عقولنا بخلاف من زال عقله بسبب مشروع او بامر صادفه لاحيلة له فيه وفي دفعه ، قد رفع القلم عنه كالمغمي عليه والمجنون وقال : (وهذه الاحوال التي يقترن بها الغشي او الموت او الجنون او السكر او الفناء حتي لايشعر بنفسه ونحو ذلك اذا كانت اسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزا عن دفعها كان محمودا علي فعله الخير وما ناله من الايمان ، معذورا فيما عجز عنه واصابه بغير اختياره، وهم اكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص ايمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الاسباب التي

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٠.

تضمن ترك ما يحبه الله او فعل ما يكرهه الله . ولكن من لم يزل عقله مع انه قد حصل له من الايمان ما حصل لهم او مثله او اكمل منه فهو افضل منهم . وقال: ان ظواهر عدم التمييز هذه لم تظهر الا مؤخرا ولم تكن موجودة في زمن الصحابة).

نستنبط مما تقدم انه يمكن تصنيف اهل التصوف الي الاصناف التالية :-

١/ اصحاب فناء الارادة الملتزمون بالكتاب والسنة من اهل الصحو الذين كبحوا جماح شهواتهم بالكلية . وتطابقت ارادتهم وفعلهم مع كل ما امر الله امر ايجاب او استحباب.

٢/ الذين يعملون الواجبات وينتهون عن المحارم ولاياتون باقصي المستحبات في العبادات وفضائل الاخلاق وأداب السلوك فهم اقل من اصحاب الدرجة الاولي فهم لايستطيعون ان يجعلوا ارادتهم تطابق في كل امر ارادة الخالق.

٣/ التائبون المذنبون من اصحاب اليمين.

٤/ اصحاب التصوف البدعي : وهؤلاء هم المنحرفون الخارجون عن الملة من اصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد واسقاط التكاليف ، وهؤلاء قد يشار اليهم احيانا باصحاب التصوف الفلسفي .

ولكن قد تستعمل عبارة تصوف فلسفي للاشارة الي التصوف الاقرب للتصور الفلسفي (قضايا طبيعة وجود العالم والانسان وعلاقة هذا الوجود بالله بجانب قضايا ابستمولوجية). وتستعمل عبارة تصوف بدعي للاشارة الي بدع ومخالفات تتصل بالعبادة والسلوك . من ناحية اخري فإن البدع قد لاترقي الي حدود أخراج صاحبها من الملة.

٥/ اصحاب الاحوال: وهم كما ذكرنا الذين تحدث لهم غيبة عقل عن حالة سكر او خلافها وهم معذورون اذا كانت الاحوال تحدث لهم بغير اختيارهم ولا يمكنهم التحرز منها وهم اقل درجة من اهل الصحو وافضل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص ايمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك .

٦/ اهل الرسوم هم الذين يهتمون بالمظهر كاللباس وغيره دون الجوهر وبالقشور دون اللباب .

٧/ اهل الارزاق : وهو الذين يعيشون في التكايا والخوانق ويعتمدون في رزقهم علي الصدقات والمنح واسم خنقاة كان موجودا في الفرس وكان يطلق علي مكان العبادة واطلق عليه في التركية تكايا ثم تطور هذا النظام بعد ان كان يهتم كل الاهتمام بالتدريب العسكري فصار له جانبان جانب عسكري والاخر ديني يقوم به

المرابطون بالصلاة والادعية الطويلة والزهد والتقشف وذلك باشراف بعض المشايخ ثم بدأ يدخل فيها الانحراف والقسوة نتيجة انتماء كسالي القوم والهاربين من الحياة وبعض المتمردين اليها ثم بدأت الرباطات تتحول الي الطرق الصوفية وكانت فرصة لقضاء المآرب الشخصية اذ كان يجد فيها كل من صاحب النية الحسنة والسيئة مجالا لتحقيق اغراضه (١٢).

٨/ الطرقية : وهم اصحاب الطرق الصوفية ، ويمكن القول ان كل متصوفة او شيخ له طريقة يختص بها فالغزالي والجنيد وابن عربي لهم طرق معينة . ولكن هذه الطرق اقرب الي المدارس الصوفية منها الي الطرق الصوفية وما يعرف بالطريقة الصوفية كاسلوب متميز لظاهرة التصوف لها سماتها المعينة ولها خصائص تنفرد بها اذا ما قورنت بالطرق الاخري . ومن ناحية اخري فان لهذه الطرق المختلفة سمات عامة مشتركة.

والطريقة الصوفية تتكون من شيخ ومريد وبيعة او عهد ، يلتزم المريد علي اساس هذه البيعة او العهد بسلوك معين . وللشيخ صفات وللمريد صفات وللبيعة صيغة وشروط . فشيخ الطريقة يتلقي الطريقة من شيخ آخر يكون معلمه مرشده او يتلقاها مباشرة من الله عز وجل او من الرسول صلي الله عليه وسلم يقظة او مناما . وللمريد واجب الطاعة والالتزام الابدي بالعهد ما دام موصولا بطاعة الرسول صلي الله عليه وسلم وله حقوق تقابل ذلك (اذا جاز التعبير) ، فهو يرجو العون من الشيخ في الدنيا والاخرة ويرجو شفاعته . والعهد والالتزام مطلق غير مقيد.

وهناك عدة طرق اشهرها القادرية والشاذلية والتجانية والسنوسية والاحمدية والبرهانية والنقشبندية . ولهذه الطرق سمات عامة وهي اسلوب للذكر ، وورد معين ، ولجوء للخلوة ، او الصحبة، والتزام للشيخ وطاعة له وعدم التحول من طريقة لطريقة اخري . ولكل طريقة عقائد وممارسات خاصة وشروط معينة فللطريقة التجانية مثلا شروط وردت في كتب اصحابها (١٣).

١/ ان لايجمع مع الطريقة طريقة اخري.

٢/ تصديق الشيخ في جميع اقواله.

٣/ ان لاينتقد الشيخ .

٤/ دوام محبة الشيخ.

---

(١٢) د. مقداد يحي فلسفة الحياة الروحية ص ١٠٤.

(١٣) عبدالرحمن حمزة عبدالسلام، شروط الطريقة التجانية ، ص ٢-٤

٥/ مداومة الورد
٦/ ان لايزور المشايخ الا باذن شيخه
٧/ مجانبة المنتقدين للشيخ .
٨/ ان لايعطي الورد من غير اذن الشيخ.
٩/ الاجتماع للوظيفة (الهيللة).

المعارف التي يحتاج اليها دارس التصوف :

(١) ان أول ما يحتاج اليه دارس التصوف هو معرفة عقائد المتصوفة وممارساتهم. ويمكن معرفة هذه العقائد والممارسات بدراسة كتبهم وبدراسة ميدانية عن طريق الاستبيانات او عن طريق المقابلات الشخصية وطرح الاسئلة للشيوخ والمريدين او بملاحظة سلوكهم واسلوب حياتهم.

(٢) معرفة احكام الشرع : التي تمثل المعايير التي بموجبها يمكن اصدار الاحكام الخاصة بهذه العقائد والممارسات ووسائل استنباطها .

(٣) معرفة جوانب من علم النفس لكي نتمكن من ان نقارن بين مظاهر السلوك غير السوي (Abnormal Behaviour) والسلوك الصوفي فنحكم بالتطابق او الاختلاف بين السلوكين ، فإنه لايمكن تجاهل التشابه الظاهر بين السلوكين فالصوفي له الرغبة ان يعتزل الناس وقد يسمع هواتف او يرى اشياء او يحس بأن كل ما في الكون خلق لاجله ويعتمد عليه او يشعر بأهمية كونية (Cosmic Significance) او يحس بأن ليس لديه رغبة في الحياة ، او يحس بحقارة عميقة في نفسه. او بزهد كامل في الحياة او يفسر الظواهر والموجودات الخارجية تفسيرات ويعطيها تأويلات غريبة وغير عادية.

(٤) وقد يحتاج الي معرفة نتائج الدراسات في مجال البراسايكلوجي (S.P) او المشاركة في هذه الدراسات، وهذه الدراسة تكون عادة في مجال ما يسمي بالادراكات فوق الحسية (E.S.P) وهي تشمل الظواهر غير العادية والتي لاتخضع للطريقة العلمية المعروفة . وهي عادة اربع ظواهر ظاهرة ما يعرف بالتليباثي (Telepathy) وتتمثل هذه الظاهرة في مقدرة الانسان علي الاتصال بشخص آخر ومعرفة افكاره ليس عن طريق الحواس والطرق العلمية وما يعرف بـ (clairvoyance) وهو معرفة الاشياء والحوادث بغير استعمال الحواس وما يعرف بالمقدرة علي المعرفة السابقة للاشياء قبل حدوثها بما في ذلك افكار الغير (Precognition) وما يعرف بمقدرة الانسان علي التأثير علي الاشياء بمجرد التفكير فيها (Psychokinesis).

ان هذه الظواهر لم تكن تعتبر في الاوساط العلمية داخل نطاق الظواهر العلمية – اي التي تخضع للمنهج العلمي التجريبي . ولكن تغير هذا الوضع في الآونة

الاخيرة فقد سمح لراين (Rhine) لاول مرة في قسم علم النفس برئاسة وليم ماجنوجال (Wliam Mc Dougall) ان يقيم معملا للتجارب في البراسايكولوجي ولقد استعمل راين طرقا علمية صارمة مثل الطرق الاحصائية وطرق التحليل الرياضي واستعمل ضوابط ميكانيكية (١٤).

كما وان العالم مالكوم قاثري (Malcoim Guthrie) اجري تجارب علمية للارسال التيلباثي للرسومات فكانت ناجحة (١٥) ولم تكن تجارب مالكوم فاتري الوحيدة فلقد شارك رؤساء الجمعية الانجليزية للبحوث العلمية في الادراكات فوق الحسية منهم فلاسفة امثال هنري سيدويك (Henry Sidgwick) وسي. د. بورد (C.D.Board) واساتذة جامعات وحائزون علي جائزة نوبل ورؤساء وزارات (١٦).

وقد ذكر هانسل (١٧) (Hansel) ان كبار علماء النفس الانجليز امثال سير سيرل بيرت (Sir Syril Burt) ومارجريت نايت (Margaret Kinght) والدكتور روبرت هـ . تاوليس (Robert Thouless) وبروفسير هـ . ج . ايزنك (H.J.Eysenck) لا يشكون في وجود الادراكات فوق الحسية وقالت مارجريت ان تاوليس (١٨) وضح انه من ضياع الوقت ان نحاول عمل تجارب مضنية لكي نبرهن علي ظواهر الادراك غير الحسي لانها ثبتت بطريقة لاتدع مجالا للشك.

كما ان ايزنك (١٩) قال ان الملاحظ المنصف يقر وجود عدد قليل من الناس يعلمون ما يدور في اذهان اشخاص آخرين او في العالم الخارجي بطريقة غير معلومة حسب المنهج العلمي العادي، وذكر هانسل (٢٠) ان الدراسات عن الادراكات فوق الحسية اظهرت النتائج التالية (تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذه النتائج دون المساس بجوهر المعني):

١/ ان البعض يدرك ويعلم امورا ويصيب اهدافه بطريقة غير عادية ولا يمكن

---

(14) The Roots of coincidence, Arthur Koestler. p12

(15) Ibid, p.31

(16) Ibid , pp32-34

(17) E.S.P and the parasychology, C.E.M Hansel, pp5-6.

(18) Ibid , p6

(19) Ibid , p6.

(20) Ibid , pp312-313.

تفسير هذا العلم والادراك بأنه حدث عن طريق الصدفة .

٢/ ان بعض التجارب التي تثبت ظاهريا انها اصابات علمية ما هي الا نوع من الغش والخداع ولاتمثل اصابات حقيقية.

٣/ ان عدد الاصابات لبعض العالمين (والتي تدل علي مقدراتهم غير العادية) لاتثبت في كل الاحوال والظروف.

٤/ ان مقدرة العالمين علي الاصابة تقل عندما تنشر ويتم علم الناس بها .

٥/ تقل اصابات بعض العالمين عندما تتعرض لنقد وفحص الدارسين والناقدين والمحققين.

انه من غير الواضح ما الذي يمكن استنباطه من هذه النتائج . كان ينبغي علي هانسل ان يوضح هل الاصابات التي لاتتم عن طريق الصدفة هي نفسها التي يحتمل ان يكون حدث فيها غش وخداع . لان نتائجه مبهمة وغير واضحة منطقيا (فهو قد استعمل سورا مبهما في النتيجة الاولي يمكن ان يفسر علي انه يدل علي البعض واستعمل لفظ بعض في النتيجة الثانية وعلي هذا الاساس قد يكون البعض في القضية الثانية لايشمل البعض في القضية الاولي وبالتالي تكون هنالك اصابات حقيقية ليس فيها غش او خداع او يمكن بأن يفسر بأن كل اصابه لم تتم عن طريق الصدفة قد تم فيها غش وخداع).

وعلي اية حال فان النتيجة الاخيرة التي توصل اليها هانسل ، حسب فهمي ، هي ان ظواهر الادراك فوق الحسية ممكنة ولكنها لم تثبت بعد بالتجارب.

من ناحية اخري فقد ذكر ر.أ. ماكونيل (٢١) (R.A. Macconell) ان الدراسات في الاونة الاخيرة قد اثبتت ما يلي :

١/ المقدرات غير العادية منتشرة بين الناس عالميا.

٢/ هذه المقدرات لها علاقة قوية بالوراثة.

٣/ بعض الناس لهم هذه المقدرات اكثر من آخرين.

٤/ هنالك احوال وعي معينة تسهل ملاحظات ظواهر للبراسايكولوجي

٥/ مقدرات السايكوكنيس (Psychokneeis) حقيقة تجريبية .

٦/ التنويم المغناطيسي يمكن ان يستعمل للتاثير علي عقل شخص آخر.

واعتقد ان هذه الظواهر قد حدثت بالفعل والدليل علي حدوثها الاخبار الصحيحة (ثبتت بخبر العدل الضابط) وانه ممكن اجراء التجارب العلمية لاثباتها ،

---

(21) An Introduction to parasychology. R.A Mcconnel

ولقد كانت نتائج بعض التجارب ايجابية . ولكن نجاح هذه التجارب يكون عادة مهددا بخطر كبير قد يجعل نجاحها صعبا ان لم يكن مستحيلا، والسبب في ذلك قد يكون ان اجراء التجارب عليها نفسه يؤثر في نجاحها وان نجاحها يحتاج الي ظروف طبيعية (ان ملاحظة الشيء قد تجعله يغير من طبيعته العادية – فمثلا مراقبة الطفل تغير من سلوكه ، وملاحظة الالكترون تجعل معرفة موضعه وسرعته في نفس الوقت مستحيلة) كما وان محاولة اثباتها بمنهج نقدي يدل علي شك من جانب الباحث في حدوثها الامر الذي يكون له اثر سلبي في نجاحها . (لاحظ ان «الفكي» في السودان يقول ان من لايؤمن بنا لاياتينا لخدمته) فنجاح التجارب الخاصة بهذه الظواهر يحتاج الي ثقة المراقب او في عدم وجود الرقابة نفسها . بالاضافة الي ذلك فان هذه الحوادث غير العادية نادرة الحدوث وما يحدث منها قد لايتكرر وما يتكرر منها فإن كثرة اجراء التجارب عليها قد يحد من نجاحها فهي لاتتكرر حسب الطلب وقد لوحظ انه قد يكون ظهورها اكثر في مجتمعات معينة (البدائية مثلا) او في حقب تاريخية معينة فالامر اذن قد يحتاج الي مزيد من الدراسة . ولقد تطرقت الي هذه القضية في معرض الاشارة الي ما يحتاج اليه دارسو التصوف من معارف وعلوم وليس الغرض استيفاء القول فيه كما وان مجال البراسايكولوجي والادراكات فوق الحسية يتصل بقضية الكرامة في التصوف.

(سترد الاشارة الي مفهوم الكرامة عندما نتحدث عن قضايا التصوف).

(٥) يحتاج الدارسون لمعرفة عقائد المتصوفة وممارساتهم وطرق حياتهم في الثقافات الاخري كالهندية والفارسية وغيرها ومعرفة هذه العقائد والممارسات المشابهة في الديانات الاخري كالمسيحية وفي الفلسفات اليونانية الوسيطة والحديثة والمعاصرة.

(٦) يحتاج الدارس ايضا الي معرفة الدراسات التي تمت في هذا المجال في الشرق والغرب لان جهدا قد تم في هذا المجال للفهم والتحليل والتقييم.

٧/ علي الدارس ان يكون ملما بوسائل التحليل اللغوي والاستنباط المنطقي وبطرق مناهج البحث العلمي وبعض النتائج المعرفية في مجالات العلوم ذات الصلة.

تعريف التصوف وأصل اللفظ :

اختلفت آراء مؤرخي التصوف والدارسين في اصل كلمة «التصوف وقد ذكر ابن تيمية (٢٢) جملة من هذه الاراء فقال ان التصوف (نسبة الي اهل الصفة). وقال وهو خطأ لأنه لو كان كذلك لقيل (صُفّي) وقيل نسبة الي الصف المقدم بين يدي الله، وهو ايضا خطأ فانّه لو كان كذلك لقيل صَفّيٌ ، وقيل نسبة الي الصفوة من خلق الله وهو في رأينا خطأ لأنه لو كان كذلك لقيل صفوي، وقيل نسبة الي صوفه بن بشر بن ادبي طانجة قبيلة من العرب كانوا يجاورون مكة في الزمن القديم يتسب اليهم النساك وهذا وان كان مناسبا من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضا لأن هؤلاء غير مشهورين والاصح في رأينا أنه نسبة الي لبس الصوف.

من ناحية أخري يري البعض أن التصوف منسوب الي (سوفيا) وهي كلمة يونانية تدل علي الحكمة لكن هذه النسبة غير صحيحة لأن الكلمة اليونانية قصد بها فلاسفة اليونان ذلك المنهج الذي قوامه البحث النظري المجرد في الوجود للوقوف علي حقائقه وماهيته مما لايتصل بالسلوك العلمي الا قليل اما التصوف الاسلامي فانه ذو طابع عملي (٢٣) وقيل انه مشتق من الصوفانة، وصوفه القفا، والصفاء وغيرها من الالفاظ. ولكن نسبة التصوف الي لبس الصوف رأي انعقد عليه (٢٤) اجماع آراء المختصين في الدراسات الصوفية من علماء المسلمين قديما وحديثا ومن المستشرقين ايضا . صححه من القدماء السراج والكلباني والسهر وردي، وابن الجوزي وابن تيمية وابن خلدون وآخرون من المستشرقين فون كريمر وكولدزيهر ونيكلسون واربري.

ان أهمية اصل اللفظ تتمثل في اعتقادي في أنه قد يلقي الضوء علي مفهوم التصوف وقد يتصل بشرعيته واصالته فمثلا نسبته لأهل الصفة من اصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم الذين هم خير القرون ، يُعطيه شرعية ، ونسبته الي

---

(٢٢) مجموع الفتاوي الجزء الحادي عشر (التصوف) ص ٦-٧

(٢٣) عرفان عبدالحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، ص١٠٩

(٢٤) المصدر نفسه ص ١١٠

الصفاء اشارة الي انه يهتم بصفاء السرائر والنفوس والقلوب وهذا امر حسن وهكذا . ولكن اذا سلمنا جدلا بأن اصله شرعي وحسن فان ذلك لايعطيه شرعية دائمة لانه قد يتغير وقد ينحرف عن الاصل – وهو امر قد حدث لبعض اتجاهاته.

ومن ناحية اخري فان التحقق من الشرعية، او عدمها يمكن ان يتم بمقارنة آراء اهل التصوف بما جاء في الكتاب والسنة وبما يمليه حكم العقل والمنطق السليم(٢٥).

تعريف التصوف :

هنالك تعريفات متعاطفة وتعريفات متحاملة وتوجد تعريفات محايدة له. فالتعريف المحايد هو الذي يعطي وصفا لواقع التصوف كما هو دون تقييم . ويحاول تحديد السمات الاساسية المشتركة او الغالبة عليه اما التعريف المتحامل فانه عادة ينتقي بعض الممارسات والمعتقدات السلبية والسيئة ويعرف التصوف جميعه بها والتعريف المتعاطف يحاول ان ينتقي الصفات الايجابية والحسنة للتصوف دون غيرها ويحاول ان يعرفه جميعه بها .

فالتصوف عند المتحاملين طريقة مبتدعة في الدين والتعبد والسلوك واهله اهل بدع وشعوذة وجهلاء يمارسون المنكرات ومثال ذلك قول احدهم (وبعد قد ظهرت الدعوة للتصوف من جديد وبعد ان ظن المصلحون انها قد مضت فلا ترجع وماتت فلا تنتشر وذلك بعد ان اظهروا زيفها وكشفوا عوارها وازاحوا الستار عما تخفي وراءها من جيوش الخراب والدمار تلك الجيوش الكافرة التي مافتئت تضرب في جسم امة الاسلام حتي مزقته اشلاء وطرحته لكلاب الاستعمار اجزاء فامتصوا دمه واكلوا لحمه وكسروا عظمه وواروه التراب وظنوا انه لايبعث الي يوم الحساب.

وما ان نشر الله امة الاسلام بعد موتها وعادت الي الحياة من بعد مفارقتها ورآها العدو الثالوث المركب من اليهود والمجوس والنصارى رآها وقد تحررت ديارها وتخلصت من نير الاستعمار الغربي بلادها واقطارها فلم يعد بها سلطة لكافر ولا سلطان لكافر آلمها تحررها واكربها واحزنها خلاصها واستقلالها حتي راح يبحث عن عملائه الاقدمين وجنوده المخلصين من دعاة التصوف (٢٦).

---

(٢٥) عبدالله حسن زروق ، قضايا التصوف الاسلامي ، ص٩

(٢٦) الي التصوف ياعباد الله، ابوبكر جابر الجزائري . ص٢

كما وان هنالك تعريفات تركز علي الجانب الحسن والايجابي للتصوف . فتقول انه علم القلوب الذي يجعل القلوب نيرة سليمة صحيحة او تقول انه علم الباطن الذي يحث علي الاهتمام بالعبادات الباطنة كاخلاص النية والتوجه بالعمل الي الله تعالي والتوكل والصبر والمحبة والرضي او تقول انه علم الاخلاق الذي يحث علي التحلي بالاخلاق والصفات الحميدة وترك الصفات الذميمة، او تقول انه علم الحقيقة الذي يزود صاحبه بعلم حقائق الوجود ويعطيه علما باسمي واعظم واجل موجود وهو الله سبحانه وتعالي ، او تصفه بأنه علم التجارب والاذواق والمواجيد والمكاشفات وعلم الباطن والعلم اللدني، وتصف اتباعه بانهم العباد والفقراء والزهاد او تصفهم بانهم أهل الاحوال والمقامات واهل الكرامة والولاية والصلاح . او تقول انه مرتبط بالمجاهدات والعمل لا النظر وبمقاومة الشهوات ومجاهدة النفس وعدم الاسترسال معها في طلب لذاتها.

ان كل وصف من هذه الاوصاف يكشف جانبا من جوانب التصوف لايمكن انكاره ولايمكن اغفاله فالتعريف الصحيح ينبغي ان يجمع كل اوصاف التصوف الايجابية منها والسلبية ولكن هذا الجمع قد لايرضاه بعض اهل التصوف ويكون من الافضل في اعتقادي ان نصنف التصوف (الي سني او بدعي او فلسفي او غيره) ونعرف كل صنف علي حدة وهذا عندي اقرب الي العدل والانصاف.

نشأة التصوف :

اختلف مؤرخو التصوف في تحديد اسباب نشأته فمنهم من قال انها اسباب خارجية ومنهم من قال انها اسباب داخلية (سياسية كانت ام اجتماعية ام دينية ام فكرية) ومنهم من قال انها خارجية وداخلية في نفس الوقت.

لكن قبل ان نستعرض هذه الاراء ونقيمها نود ان ننظر في دوافع قائليها فان الدوافع التي تقف وراء هذه الاراء قد لايكون غرضها نزيها وقد لايكون هدفها اعطاء الحقيقة من ناحية اخري فقد يكون غرضها اعطاء الاسباب الحقيقية لنشأة التصوف.

والذين كتبوا عن اسباب نشأة التصوف ممن اطلعت علي آرائهم منهم المسلمون الذين يرون ان التصوف كله حق ومنهم الذين يرون انه كله باطل ومنهم الذين يرون

ان فيه ما هو حق وفيه ما هو باطل ومنهم المستشرقون فالمسلمون الذين يرون انه علي باطل لايريدون ان يمنحوه الشرعية بنسبته للاسلام ولذلك يقولون انه تأثر بالمسيحية والثقافات الهندية وغيرها من الثقافات غير الاسلامية ، والذين يرون انه علي حق يسعون جاهدين للتدليل علي ان اصوله اسلامية وداخلية وانه ظهر نتيجة تأمل المسلمين القرآن الكريم وتأثرهم بسيرة الرسول الله وسيرة صحابته الميامين اما المستشرقون فانهم اصناف صنف رأي في التصوف جوانب روحية ممتازة او عمقا فكريا وثقافة انسانية عميقة فعز عليه ان ينسب ذلك للاسلام وعنده ان الاسلام لايمكن ان يحوي شيئا حسنا وجميلا وذا قيمة فنسب التصوف الي رهبان النصاري وغيرهم «يقول كرادفو : ان القرآن لم يكن مطلقا الكتاب الذي استطاع مبدئيا ان يجتذب الصوفية نحوه كثيرا لانه متعلق بالظواهر الخارجيه وليس فيه الحنو الداخلي والروحي (٢٧) ان هذا الصنف من المستشرقين غرضهم تجريد الاسلام من كل ما يرون انه نشاط حسن وجميل كالعبادة والنسك والتبتل والزهد.

اما الصنف الاخر من المستشرقين الذين قالوا ان التصوف نشأ بتأثر من القرآن والسنة فكان هدفهم إلزام المسلمين بمعتقدات في التصوف يكره عامة المسلمين نسبتها للاسلام ويرونها مخالفة لتعاليمه كنظرية الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

لكن هذا لايمنع ان يكون بعض القائلين ان اسباب نشأة التصوف خارجية او القائلين انها داخلية قد توصلوا الي هذه النتيجة بطريقة موضوعية وبدافع نزيه.

ولكن يبقي السؤال ما هي الاسباب الحقيقية للنشأة ؟ ان القائلين ان التصوف نشأ بعوامل خارجية عزوا هذا التأثير الي الثقافات المسيحية والهندية والفارسية واليونانية والذين قالوا انه نشأ بعوامل داخلية عزوا هذه العوامل الي اسباب سياسية واجتماعية ودينية وفكرية . وقالوا ان العوامل الفكرية والعقدية هي القرآن الكريم والحديث والفقه وعلم الكلام.

اما العامل السياسي فيتمثل في الفتن والثورات والحروب الداخلية كل ذلك اثر في صفوة وجوه الصحابة والتابعين ودفعهم الي الاعتزال السياسي والرغبة عن الدنيا والانقطاع عن زخرفها والخلود الي حياة النسك والزهد والعبادة (٢٨) اما العامل الاجتماعي «فظهور طبقة الارستقراطية انطلقت وراء المتعة الرخيصة واسرفت في المجون كان لها دورها في نشأة الزهد والتصوف (٢٩).

---

(٢٧) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، عرفان عبدالحميد ص ٣٧.

(٢٨) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها عرفان عبدالحميد فتاح ص٤٤

(٢٩) نفس المصدر ص ٤٥

وهنالك اتجاه يري ان اسباب نشأة التصوف ترجع الي هذه العوامل مجتمعة وعندي ان هذا الاتجاه اقرب الي الصواب ولكن الامر يحتاج الي تفصيل ففي اعتقادي ان اسباب التصوف قد ترجع للاسباب التالية:-

١/ تأثير خارجي وقد تقدمت الاشارة اليه.

٢/ تأثير داخلي ولقد تقدمت ايضا الاشارة اليه.

٣/ هواجس النفس ودواعيها ومناطق اللاوعي فيها.

٤/ الالهامات الربانية .

٥/ الفطرة .

٦/ وساوس الشيطان.

فكل ما كان موافقا للقرآن الكريم والسنة الشريفة والفطرة السليمة فان مصدره الوحي والالهام الرباني وكل ما كان مخالفا للوحي فانه اما ان يكون بتأثير الثقافات الاجنبية او يكون صادرا من هواجس النفس او بتأثير من الشيطان كما وانه لاشك ان للبيئة السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية اثرا في نشأة التصوف، واذا تتبعنا جوانب التصوف وجدناها توافق مصدرا من هذه المصادر فلنأخذ مثلا: المؤثرات الخارجية هندية كان ام مسيحية ام يونانية فاننا نجدها توافق جانبا من جوانب التصوف. فقد كان الهنود يميلون الي حياة التقشف والزهد احتقارا للذات الجسدية ويعتقدون انه يجب علي الانسان ان يطهر نفسه من دنس البدن حتي ترتقي في الكمال وصولا الي الانفصال للروح عن عالم الابدان واتحادها بالروح الكلية للعالم بما سموه : النرفانا (٣٠)وقالوا ان الطعام اللذيذ يهيج الشهوة واللذة الحيوانية وينشط القوة البهيمية فهو حرام ايضا واكتفوا بالقليل من الغذاء علي قدر ما تثبت به ابدانهم ومنهم من كان لايري ذلك القليل ايضا، ليكون لحاقه بالعالم الاعلي اسرع (٣١). وهنالك جوانب في التصوف توافق المسيحية فيحتمل ان يكون المسيحية مصدرها مثل نظام الرهبنة الذي يقوم علي احتقار البدن وهجر الدنيا واعتزال الناس في الاديرة والابنية المقامة في مناطق نائية والامتناع عن الزواج

---

(٣٠) التصوف منشؤه ومصطلحاته – سعد مراقي ص ٤٧–٤٨.

(٣١) المصدر نفسه ص ٤٩ – الشرستاني ص ٢٦٣.

وتوافق المسيحية عقيدة الحلول عند المتصوفة فالمفهوم المسيحي بطبيعة المسيح هو انه انسان الهي ذو طبيعتين امتزجتا وصارتا طبيعة واحدة انه مركب من الناسوت واللاهوت (كما يدعون) وهذا موافق لما نقل عن الحلاج حيث قال: سبحان من اظهر ناسوته .. في سنا لاهوته الثاقب – ثم بدا خلقه ظاهرا في صورة الاكل الشارب وحيث قال : انا من اهوي ومن اهوي انا نحن روحان حللنا بدنا فاذا ابصرتني ابصرته واذا ابصرته ابصرتنا (٣٢).

كذلك توافق بعض افكار المتصوفة افكار الفلسفة اليونانية . فارسطوطاليس يقول ان كل المخلوقات تتحرك حركة غائية باتجاه الله. وهي حركة العشاق باتجاه معشوقيهم لانفراده بالكمال الذي يقود الي العشق وهذه النظرة توافق نظرة الحب الالهي .

ويقول ارسطوطاليس «ان النفوس الانسانية اذا استكملت قوتي العلم والعمل تشبهت بالاله سبحانه وتعالي ووصلت الي عالمها. وانما هذا التشبه بقدر الطاقة ويكون اما بحسب الاستعداد او بحسب الاجتهاد . فاذا فارق البدن اتصل بالروحانيين وانخرط في سلك الملائكة المقربين ويتم الالتذاذ والابتهاج . وليس كل اللذات جسمانية ، فان تلك اللذات لذات نفسية عقلية ، وهذه اللذة الجسمانية تنتهي الي حد ويعرض للملتذ سأمة وكلال وضعف وقصور ان تعدي الحد المحدود بخلاف اللذات العقلية فانها حيثما ازداد، ازداد الشوق والحرص والعشق اليها»(٣٣).

وكذلك فيثافورس انتهج منهجاً يوافق التصوف فقد كان له رأي في النفس وتزكيتها بالمجاهدة حياة عزلة وخلوة (٣٤).

اصول التصوف :

ان تحديد الاسس والاصول التي ينبني عليها التصوف والنظر في حجية هذه الاصول او عدم حجيتها اهم امر ينبغي ان يبحث فيه دارسو التصوف. فما هي هذه الاصول التي تقوم عليها عقائد المتصوفة وتعتمد عليها ممارستهم ؟

---

(٣٢) اسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته ص ٥٤ –٥٥

(٣٣) المصدر نفسه ص ٥١ – ٥٢

(٣٤) المصدر نفسه ص ٥٢.

هذه الاصول عبارة عن مصادر المعرفة . وهذه المصادر يمكن تقسيمها الي مستويين – المستوي الاول هو النص والالهام والرؤيا، والمستوي الثاني يتمثل في معايير فهم النص ولاشك ان المتصوفه يتفقون مع بقية علماء المسلمين علي مصادر للمعرفة ومناهج للاستدلال كثيرة وهذا ظاهر ومبثوث في اغلب كتاباتهم، خاصة السنيين منهم كالغزالي ولكن لهم مناهج ومصادر يختصون بها او يختصون بطريقة تطبيقها دون غيرهم . وسنحاول ان نحلل هذه المصادر ونقيمها. وقد تعرضت في كتابي «قضايا التصوف الاسلامي» لجانب من نظرية المعرفة عند المتصوفة وايضا في بحث بعنوان «نظرية المعرفة عند الغزالي»(٣٥).

فبالرغم من ان المتصوفة قللوا من شأن مصادر المعرفة ووسائلها العادية كالحس والعقل والخبر ومناهج الاستدلال القائمة عليها كالاستنباط والاستقراء وحددوا مجالها فانهم لم يستغنوا عنها بالكلية كما انهم اعتمدوا الوحي (القرآن والسنة) كمصادر للمعرفة وكذلك وسائل التفسير ومعاييرها (كاللغة الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ...) وهناك مصادر اخري اخذوا بها، دار خلاف بينهم وبين معارضيهم حول حجيتها ، وحول تطبيقها وهذه المصادر هي :

١/ الالهام المباشر من الله سبحانه وتعالي .

٢/ الرؤيا المنامية عموما .

٣/ اخبار الرسول ﷺ لهم في المنام،

٤/ اخبار الرسول ﷺ في اليقظة وهو ما يسمي بالحضرة النبوية .

٥/ استنباط معاني باطنة من النصوص الشرعية بالكشف والالهام وهي معرفة من خلال النص،

ان اخذ المتصوفة عقائدهم وطرقهم وتصوراتهم عن طريق الالهام مبثوث في كتبهم . فقد قال ابن عربي : (واعلم ان ترتيب ابواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكري وانما الحق تعالي يمكن لنا علي لسان ملك الالهام جميع ما نسطره (٣٦).

وكذلك قال ابن عربي ان طريقته اخذها عن الرسول ﷺ فقد اجازها له في رؤية منامية وامره بنشرها . فقال «اما بعد فاني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة اريتها في العشر الاخر من المحرم سنة ٦٧٢هـ بدمشق وبيده كتاب فقال هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به علي الناس ينتفعون به. فقلت السمع والطاعة (٣٧)

---

(٣٥) المسلم المعاصر نظرية المعرفة عند الغزالي عبدالله حسن زروق ، ص ٢٧–٥١

(٣٦) الكتاب التكاري محي الدين بن عربي ص ١٢٩ .

(٣٧) المصدر نفسه ص ١٣٥ .

وكذلك تحدث ابن عربي عن انه اخذ المعاني التي يتكلم بها من القرآن ولكنه اعطي فهما خاصا للقرآن فقال «واعلم ان جميع ما اتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي انما هو من حضرة القرآن فاني اعطيت مفاهيم الفهم فيه والامداد منه» (٣٨).

السؤال الذي يحتاج الي اجابة هو ما حجية هذه المصادر في المقام الاول ؟ ثم ما هو مجال تطبيقها ؟ ولقد تنازع بعض المتصوفة ومعارضوهم في هذين الامرين وهما من الامور التي تتبني عليها جميع الخلافات بين الطرفين فكيف يمكن فض النزاع بينهما؟ اعتقد ان المعايير التي ينبغي ان تستخدم لفض النزاع هي :

١/ معايير لاثبات الحجية اولا فالحجية تثبت بالرجوع الي نصوص الكتاب والسنة وبالاتفاق حول دلالة هذه النصوص، ودلالة هذه النصوص ينبغي ان تفهم بالطرق المعتادة (اي من خلال اللغة واسباب النزول ... الخ) وهو تفسير تقبله العقول السليمة ، والا وقعنا في المحظور.

٢/ ونحتاج الي معايير لاثبات صحة الاخبار ـ المعنية ـ المعتمدة علي المصادر المشار اليها وهي كون الراوي سوي العقل عدلا ضابطا.

٣/ ومعايير لصحة التطبيق وهي ايضا عدم معارضة الخبر المعتمد علي احد هذه المصادر نصا جاء في الكتاب والسنة وان لايكون بدعة في الدين لان الابتداع في الدين منهي عنه فكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار فالخبر قد لايعارض نصا يحكي نفس محتوي الخبر ولكنه قد يعارض نصا عاما ينهي عن الاختراع في الدين . استدل اهل التصوف علي الالهام والرؤيا المنامية ورؤية الرسول ﷺ في المنام واليقظة بأدلة شرعية فاستدلوا علي الالهام بقوله تعالي : { واوحينا الي ام موسي ان ارضعيه} (القصص ٧، واستدلوا علي الرؤيا المنامية عموما بقوله صلي الله عليه وسلم «رؤيا المؤمن جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة» (رواه البخاري) ويقوله : «لم يبق من النبوة الا المبشرات. قيل ما المبشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة(رواه البخاري ومسلم وغيرهما) وقال : «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» (رواه البخاري ومسلم) وبقوله : «اذا اقترب الزمان ـ اي قرب قيام الساعة لم تكد رؤيا المسلم تكذب واصدقكم رؤيا اصدقكم حديثا» (رواه البخاري ومسلم وغيرهما). واستدلوا علي رؤية الرسول ﷺ في المنام واليقظة بقوله صلي الله عليه وسلم : «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة او كما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي» وفي بعض الطرق «من رآني فقد رأي الحق» وفي رواية فقد رآني فان الشيطان لا يتمثل بي.

---

(٣٨) المصدر نفسه ص ١٢٩.

والالهام يمكن ان يكون مصدرا للمعرفة ولكنه ياتي الانسان في شكل خاطر . وخاطر الالهام قد يختلط بوساوس الشيطان وهواجس النفس ولهذا قد يعارض نصوص الكتاب والسنة فاذن ينبغي ان لاتقبل خاطرا الا بعد مقارنته بما ورد في الكتاب والسنة ، فلاجل ذلك قال ابوسلمان الداراني احد المتصوفة ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا اقبلها الا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة فان الله ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها فيما سوي ذلك . اما الاستدلال بالرؤيا المنامية عموما فانه استدلال ظني وقد يكون وهميا لان الاحلام قد تختلط باضغاث الاحلام واذا لم تختلط فانها قد تأتي في شكل رموز ولاتاتي صريحة فتحتاج بذلك الي تفسير لتلك الرموز ويحتاج التفسير الي مفسر ذي كفاءة معينة ثم اذا صح الاعتماد علي الرؤيا فانها يجب ان تكون محكومة بنصوص الكتاب والسنة وان خلت من البدع . والاحوط والاسلم ان تكون في امور خارج نطاق الامور التعبدية .

اما الاستدلال برؤيا الرسول ﷺ في المنام فان الاعتبارات سالفة الذكر قد تنطبق عليها لانها قد تكون رمزية ولكن المشكل الكبير الخاص برؤيا الرسول ﷺ هو انها قد تعارض نصوص الكتاب والسنة فانها اذا لم تعارض الكتاب والسنة، ولم تكن من الامور التي تعتبر بدعة في الدين فانه قد لايكون هنالك غبار عليها. اما الاستدلال برؤية الرسول ﷺ يقظة فان القائلين بامكانية رؤيته يقظة يستدلون عليها بحديث الرؤيا ويقولون ان اللفظ عام يشمل الرؤيا المنامية والرؤيا في اليقظة ، مشكلة هذا المصدر ايضا انه قد يعارض نصوص الكتاب والسنة وقد يكون زيادة وابتداعا في الدين . والذي يروي انه رأي الرسول ﷺ يقظة اما يكون سوي العقل او يكون غير سوي العقل او يكون في حالة عقلية غريبة وشاذة فاذا كان سليم العقل فان الرؤيا ينبغي ان تكون من عدل ضابط وان لاتعارض نصا من كتاب او سنة وان لاتكون بدعة في الدين . واذا كانت من غير سوي العقل فان هذا الافتراض نفسه قد يثير تساؤلا عن هل يمكن ان يحدث ذلك ؟ فاذا جاز ان يحدث فان رواية غير سوي العقل ينبغي ان لايعتمد عليها فان تجويز رؤيته لغير سليم العقل يكون فيها مدخل في الامر لوجود الشيطان بدليل قوله تعالي : {الذين ياكلون الربا ولايقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} (البقرة ، ٢٧٥).

ويمكن الرد علي هذا الاعتراض بان وجود الشيطان في هذه الحالة متصل

بالشخص الذي روي الرؤيا وليس بالمرئي (رسول الله صلي الله عليه وسلم) بالاضافة الي ذلك اذا كان الراوي غير سوي العقل فانه لايجوز الاخذ بما روي سواء كان ذلك في حياة الرسول ﷺ او بعد مماته . من ناحية اخري فان المتصوف اذا اعتبر سوي العقل فانه قد يكون في حالة غريبة وشاذة قد غطي فيها علي عقله وتمييزه العادي فلا يقاس عليها ما يحدث في الاحوال العادية وهي حالة لايصح ان يستنبط منها تشريع . خلاصة الامر اذا صح ان الاحاديث احاديث في الرؤيا عامة فانه لايجوز ان يتمثل الشيطان بالرسول ﷺ يبقي الحديث عن فحوي الرؤيا لو كانت حقائق ليست تشريعية فان الانسان يمكن ان يعمل بها لكن لو كانت تشريعات فان معظم الصوفية واهل العلم يقولون ينبغي ان تكون موافقة للشريعة لكنها اذا عارضت الشريعة فتفسيرها يكون ـ والله اعلم ـ ان حال صاحبها اما ان تكون غير سوية (جنون) او تكون حالة غريبة وشاذة لايجوز الاعتماد عليها في التشريع.

ومعايير فهم النص عند المتصوفة اما ان تكون بالطرق المعروفة لتفسير النصوص وفهمها (عن طريق اللغة واسباب النزول وغيرها من المعايير) واما ان تكون بوسائل الادراك الاخري وهي الالهام والرؤيا وغيرها ، فاذا كان التفسير بالطرق العادية فلا مشكلة ولكن اذا كان عن طريق الالهام والرؤيا وغيرها فان ذلك ينسحب عليه نفس مشكل هذه الطرق كمصادر ووسائل للمعرفة.

وفهم النصوص بالطرق غير العادية يؤدي الي ما يسمي بعلم الباطن والعلم اللدني وعلم الحقيقة، وهذه العلوم يقال انها تكتسب بالمجاهدة والرياضة والسلوك . ولكن هذا العلم ينبغي ان لايتعارض مع العلم بالطرق الشرعية برغم ان علم الحقيقة قد يعارض علم الشريعة. والقائلون بهذا يستدلون عليه بقصة الخضر وبحديث ابي هريرة . ولقد وضحنا في كتابنا (قضايا التصوف الاسلامي) (٣٩) أن هذه الادلة لاتدل علي مرادهم ، وبينا انه يمكن ان تكون هنالك معان باطنية للنصوص تعطي معاني اضافية وتعطي عمقا وبعداً آخر لمدلول النصوص ولاتتعارض مع المعاني الظاهرة ، وانه ينبغي ان لايكون هنالك افتئات من جانب علم الحقيقة علي علم الشريعة (او العلم الظاهر).

هنالك حجة اخري عقلية يستدل بها علي وجود معارف خاصة لبعض المتصوفة فكثيرا ما يقال ان لديهم مقدرة للادراك معينة . هذه المقدرة تصدر عن حاسة ذوقية

---

(٣٩) عبدالله حسن زروق ، قضايا التصوف الاسلامي ص ٢٢٦ ـ ٢٧١ .

معينة كانت نتيجة سلوك وتجارب معينة فمن لايملك هذه الحاسة فإنه ليس له الحق في نفي ما يمكن ان يدرك بواسطتها فليس للاعمي مثلا حق في نفي وجود الالوان بدعوي انه لايراها . ولكن قد يتساءل الانسان هل ينبغي لمن ليس لديه الحاسة ان يقر بوجود ما يدعي المبصرون انهم يدركونه بواسطتها ويصدق به.

اقول لا ينبغي ان تلزمه بالاقرار ولكن ينبغي ان تلزمه بامكانية الحدوث اذا لم يكن الاقرار يؤدي الي تناقض منطقي ولكن اذا اردنا منه ان يقر بوجود هذه المدركات بالفعل ينبغي ان نقنعه بطريقة من الطرق الاتية :

١/ ان نجعله يصدق خبر الراوي ويثق في انه عدل لايكذب وضابط لما رواه واخبره عنه ولم يكن واهما وانه يصف حقيقة وواقعا .

٢/ أو ان نقنعه بدليل منفصل علي وجود الظاهرة وكنت قد اقترحت مثالا لتجربة يمكن بواسطتها اقناع الاعمي بالتصديق في وجود الالوان في كتاب قضايا التصوف الاسلامي وهنالك امثلة في مجال البراسايكلوجي ومجال ما يسمي بالادراكات فوق الحسية (E.S.P) تصلح ان تكون ادلة مستقلة لوجود ظواهر غير طبيعية.

٣/ اذا لم يتوافر الدليلان السابقان وربطنا التصديق بهذه الظواهر بوجود مقدرات خاصة تكتسب بالمجاهدات والتجارب وسلوك الطريقة الصوفية فينبغي ان نعطي من نود اقناعه اسبابا قوية نقنعه بها لكي يسلك طريق التصوف، طريق العزلة والصمت والسهر والجوع والتأمل ... الخ.

فاذا استطعنا ان نقنعه بأهمية المعارف التي سيكتسبها والمقدرات التي سيحصل عليها وحسن وجمال وبهاء الاحوال التي سيمر عليها ويعيشها فانه سيسلك الطريق المؤدي الي الاقناع ، انه يحتاج ان نمده بدراسة لجدوى النشاط المطلوب منه ممارسته.

الطريقة :

لقد تعرضنا لمفهوم الطريقة الصوفية عندما تحدثنا عن اتجاهات المتصوفة فقلنا انها تقوم علي ثلاثة اركان ، الشيخ - المريد - البيعة - والآن نود ان نتحدث عن جواز اعتبار الطريقة او اوامر الشيخ مصدراً للتدين . حاول المعارضون للتصوف ان يقوضوا مفهوم الطريقة من اساسه ببيان انها تتعارض مع مفهوم الدين الاسلامي

فوضعوا القائلين بها بين امرين كلاهما غير مقبول فقالوا: اما ان تكون الطريقة مطابقة لطريقة الرسول ﷺ واما ان تكون مخالفة لها ففي الحالة الاولي لسنا في حاجة اليها لان طريقة الرسول ﷺ تكفينا. واذا كانت مخالفة لطريقة الرسول ﷺ فانه لايجوز الاقتداء والعمل بها.

لاخلاف في ان الطريقة الصوفية اذا كانت مخالفه لطريقة الرسول ﷺ فانه لايجوز اتباعها بمعني ان الرسول ﷺ اذا حرم ومنع سلوكا فانه لايجوز لمسلم ان يسلكه لان من الشروط الضرورية لصحة الطريقة الصوفية اتساقها مع طريقة الرسول ﷺ.

ولكن قد يقول المدافعون عن الطريقة ان الطريقة ليست مخالفة لطريقة الرسول ﷺ وليست مطابقة لها ولكنها مستنبطة ومستوحاه منها وانها نتيجة لعملية اجتهاد في فهم طريقة الرسول ﷺ وانها زيادة جاءت بطريقة مشروعة لان مصدرها الالهام والرؤيا وهي مصادر لها اصل في الدين فمثلا صلاة الفاتح التي تمثل ركنا من اركان الطريقة التجانية اخذها الشيخ التجاني شفاهة (بالرؤية في اليقظة) عن الرسول ﷺ والاحتفال بالمولد له اصل في الدين وهكذا.

بعض المتصوفة يحاولون ان يوفقوا بين الهاماتهم وبين ظاهر النصوص وبعضهم لا يعتبرون انه من الضروري ولا من الممكن التوفيق بين الالهامات وظاهر النصوص لانهم يعتقدون ان ظاهر النصوص يمكن ان يتعارض مع الالهامات فالالهامات تعبر عن علم الحقيقة وظاهر النصوص يعبر عن علم الشريعة وعلم الشريعة قد يخالف ما هو حق في نفس الامر.

اذن الحكم علي صحة الطريقة وقبولها يرجع الي حجية مصادرها (الالهام والرؤيا) والي صحة تطبيق هذه المصادر والي تفسير معني عبارة (البدعة الحسنة) والي صحة التفريق بين علم الشريعة وعلم الحقيقة او بين الظاهر والباطن وهذه الامور قد ناقشناها في غير هذا الموضع فليرجع من اراد الي هذه المواضع (٤٠).

البدعة:

يستخدم المعارضون للتصوف في نقدهم له مفهوم البدعة فيحاولون ان يدللوا بمختلف الادلة علي ان الممارسات والمعتقدات الصوفية بدع. اما المدافعون عن التصوف فيعتبرون ان هذه الممارسات والعقائد ليست بدعا ويقولون حتي لو

(٤٠) عبدالله حسن زروق، قضايا التصوف الاسلامي ص ٢١٧ - ٢٢٩.

اعتبرناها بدعا فانها بدع حسنة ومشروعة وليست بدعا سيئة.

ان تحديد مفهوم البدعة ينبغي ان يقوم علي اساس النصوص الشرعية من قرآن وسنة، وضابط الامر معقود علي فهم دلالة هذه النصوص لانه قد دار النزاع حول دلالتها واختلف العلماء فيها . وسنتعرض لبعض هذه النصوص وما يتفرغ منها من مفاهيم وقضايا كتفريق بعض العلماء بين البدعة الحقيقية والبدعة الاضافية والحسنة والسيئة وكتفريقهم بين البدعة في العبادات والمعاملات.

لقد وردت احاديث كثيرة تنهي عن الابتداع في الدين منها قوله ﷺ «من احدث في امرنا ما ليس منه فهو رد» (متفق عليه) ومنها حديث العرياض بن سارية ـ «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل : يا رسول الله كأن هذا موعظة مودع فماذا تعهد الينا؟ فقال : اوصيكم بتقوي الله والسمع والطاعة لولاة الامر وان كان عبدا حبشياً فانه من يعش منكم بعدي فسيري اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(٤١) ومنها حديث جابر بن عبدالله «ان رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته اما بعد: فان خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الامور محدثاتها وكل بدعة ضلالة »(٤٢) لكن قد وردت احاديث ووردت اقوال لبعض الصحابة فسرت علي انها تدل علي ان هنالك بدعة حسنة والامر يحتاج الي نظر والي ايضاح وفيه خلاف.فعن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ : «من سن سنة خير فاتبع عليها فله اجرها واجور من اتبعه غير منقوص من اجورهم شيئا ومن سن سنة شر فاتبع عليها كان عليه وزرها ومثل اوزار من اتبعه غير منقوص من اوزارهم شيئا» (رواه الترمذي وصححه وقال حديث حسن) . وفي الصحيح من قوله ﷺ «من سن سنة حسنة كان له اجرها واجر من عمل بها لاينقص ذلك من اجورهم شيئا ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لاينقص ذلك من اوزارهم شيئا».

ويستدلون ايضا بما روي عن عمر رضي الله عنه من قوله عن اجتماع الناس في صلاة التراويح ومداومتهم علي ذلك في المساجد في رمضان علي امام واحد

---

(٤١) رواه الترمزي وصححه ابوداود وغيرهما(انظر البدعة توفيق يوسف الواعي).

(٤٢) الحديث اخرجه البخاري كتاب الادب ، قوله تعالي [يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين] انظر البدعة توفيق يوسف الواعي ص ١١٢.

(٤٣) انظر المصدر نفسه .

(بدعة ونعمت البدعة) (٤٣) . واستدلوا بما رواه الامام مسلم في صحيحه بسنده عن مجاهد فقال: (دخلت انا وعروة بن الزبير المسجد ، فاذا عبدالله بن عمر جالس الي حجرة عائشة والناس يصلون الضحي في المسجد، فسألنا عن صلاتهم فقال بدعة) (٤٤) وبما اخرجه ابن ابي شيبه باسناد صحيح عن الحكم بن الاعرج عن الاعرج قال : (٤٥) واستدل البعض بقول بلال رضي الله عنه (الصلاة خير من النوم) فهي من محدثات سيدنا بلال وقد قال له الرسول ﷺ عندما سمعها منه (ما احسن هذا اجعله في اذانك) وقد اورد هذا القول ابوالشيخ في كتابه الاذان عن ابن عمر رضي الله عنهما ورواه الطبراني عن عائشة والبيهقي عن حفص ابن عمر مرسلا (٤٦) واستدلوا بما اخرجه الامام البخاري في صحيحه من رواية سيدنا رفاعة بن رافع الزرقي قال (كنا نصلي يوما وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال ـ سمع الله لمن حمده فقال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ـ فلما انصرف قال : من المتكلم قال : انا قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها ايهم يكتبها اولا) (٤٧).

(يقول الامام ابن لب رادا علي من انكر الدعاء عقب الصلاة غاية ما يستند عليه منكر الدعاء ادبار الصلوات ان التزامه علي ذلك الوجه لم يكن من عمل السلف الصالح وعلي تقدير صحة هذا النقل فالترك ليس بموجب الحكم في ذلك المتروك الا جواز الترك وانتفاء الحرج اما التحريم او كراهة المتروك فلا ـ ولا سيما فيما له اصل اجمالي متقرر في الشرع) (٤٨).

اتفق امراء المسلمين علي ان كل امر مستحدث يخالف الكتاب والسنة في العقائد والعبادات او المعاملات فهو بدعة اما ما يتصل بالصناعة والزراعة وغيرها من الامور المكتسبة بالخبرة والتجربة او بمطلق العقل والتي لاتتعلق بامر الشارع فانه يجوز الاختراع والبدعة فيها اما التي تعارض مقصد الشارع بوجه من الوجوه فانه لايجوز فعلها وعلي الاساس ما استحدث من المعتقدات كالاعتقاد في الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وفناء الوجود فانها بدع باطلة لانها تعارض العقيدة وما

---

(٤٤) انظر البدعة علي عبد عطية ص ٢٠٥.

(٤٥) انظر المصدر نفسه ص ٢٠٥ ـ ٢٥٦ .

(٤٦) ابراهيم الجلية عبدالجبار المبارك ص ٢٥ .

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) ابراهيم الجلية عبدالجبار المبارك ص ٢٧ .

استحدث في العبادات كزيادة عدد ركعات او سجود او ركوع او جعل الصلاة الجهرية سرية او عكس ذلك او الوضوء دون غسل وما استحدث في المعاملات كتحليل الربا. ولايكاد يختلف احد في ان هذه الامور ينبغي ان تعد بدعا فقد اجمع علماء المسلمين ان كل ما خالف نصا فانه يعد بدعة. ولا مشكل في وصف ما خالفها نصا بانه ضلال فلا يحتاج الي وصفه بانه بدعة ولكن ما يحتاج الي نظر والذي قد يكون حوله خلاف هو هل ما لم يعارض نصا يمكن ان يكون بدعة؟ وقد انقسم الفقهاء عموما في هذا الامر الي فريقين فريق يري ان العمل اذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا صحابته فانه يكون بدعة وفريق يري انه ليس من الضروري ان يكون هنالك عمل او نص مباشر ولكن ينبغي ان يوافق العمل اصول السنة وقواعدها او ما قيس عليها واستنبط منها فالشافعي من اصحاب الرأي التالي : (قال الشافعي رحمه الله كل ما له مستند من الشرع فليس ببدعة ولو لم يعمل به السلف لان تركهم للعمل به قد يكون لضرر قام لهم في الوقت او لما هو افضل منه وقال البدعة الضلالة ما يخالف الكتاب والسنة او الاثر والاجماع وما احدث فيه الخير فلا خلاف فيه للعلماء (وعارض هذا الرأي مالك رحمه الله وقال هو بدعة لانهم لم يتركوه الا لامر عندهم فيه فانهم كانوا احرص علي الخير واعلم بالسنة ، واستند اصحاب الرأي الاول علي قول عمر بشأن صلاة التراويح (نعمت البدعة) واستندوا الي ما رواه مسلم بشأن صلاة الضحي جماعة في المسجد.

وقبل ان نناقش هذين الرأيين نود ان نشير الي موقف ثالث وهذا الموقف ليس بموقف الرفض المطلق لما يسمي بالبدعة الحسنة ولكنه موقف رافض للمشارك فيها ولمجاراتها وهو بذلك اقرب للرفض من القبول. اخرج احمد بسند جيد عن غضيف ابن الحارث قال : رحت الي عبدالملك بن مروان فقال انا قد جمعنا الناس علي رفع الايدي في المنبر يوم الجمعة وعلي القصص بعد الصبح والعصر فقلت اما انها امثل بدعتكم عندي ولست بمجيبكم علي شيء منها لان النبي ﷺ قال :(ما احدث قوم بدعة الا رفع من السنة مثلها فتمسك بسنة خير من احداث بدعة) (٤٩) - (ستضمن عناصر ما سنخلص اليه في هذه المسألة محتوي هذا الموقف).

اعتبر اصحاب الرأي الاول ان الاصل في مسألة البدعة حديث كل بدعة ضلالة وان كل امر مبتدع ليس فيه خير ولو كان فيه خير لفعله الصحابة.

---

(٤٩) فتح الباري ١٧٥ ص ١٧ ، ص ١٠ (انظر البدعة عزت عطية ص ٢٠٩).

وقالوا ان قول عمر رضي الله عنه (نعمت البدعة) لايعني انه يمكن الابتداع في الدين فان التراويح قد صلاها الرسول ﷺ وقد صلاها جماعة ولكنهم لم يداوموا عليها لان الشارع لايريد ان تكون فرضا ولو داوم الرسول ﷺ عليها في جماعة لالتبست بالفرض . فالنظر الي هذه الحيثيات فكأن الرسول صلي الله عليه وسلم قد اجازها وقال اصحاب الفريق الثاني انها خير، له اصل واستدلوا بصلاة التراويح وبصلاة الضحي وقالوا في تبرير العبادات التي لم يرد عن السلف انها كانت بتلك الكيفية ولم يجدوا لها سندا اصلا اعتبروها من قبيل النذر الذي يلزم ناذره ولا يلزم غيره او اعتبروها من قبيل التنشيط ومما يساعد علي مداومة العمل ولم يعطوا العمل خصوصية الا اذا كانت له في الشرع خصوصية . فاذا خصص يوما او وقتا بركعات او بصدقة او قراءة قرآن فانه ينبغي ان يكون بقصد ان الوقت يلائمه فراغه ونشاطه واشترطوا في العبادة ايضا ان لا يكون فيها تشدد او تنطع وان يحذر صاحبها ان لاتلتبس علي الاخرين بالفرض او المستحب.

والامر عندي في التحليل النهائي يرجع الي اعتبار الاصل الذي ترجع اليه البدعة وقوة حجية هذا الاصل فمثلا هل المولد بدعة ؟ وهل التبرك بدعة ؟ .. الخ لاجل ذلك قاد الخلاف الرافضين تحليل مفهوم مايسمي بالبدعة الحسنة الي تقسيم البدعة الي حقيقية واضافية . وقسموا الاضافية الي تلك التي تقرب من البدعة الحقيقية بالتي لم يدل عليها دليل شرعي لا من كتاب ولا من سنة ولا اجماع واستدلال معتبر عند اهل العلم لا في الجملة ولا في التفصيل وقالوا وقد يتأول المبتدع صاحب البدعة الحقيقية ولكن تأويله يكون تحريفا وفيه تعسف اما البدعة الاضافية فهي التي لها من الادلة متعلق ولذلك قد تشتبه علي الفرد . والاشتباه قد يكون قويا حتي يظن انها ليست ببدعة وقد يكون ضعيفا فتعتبر قريبة من البدعة الحقيقية . وهذه هي منطقة الخلاف التي قد تختلط وتلتبس فيها الامور. ويدور الان نقاش حول بعض الامور المختلف فيها والتي يعتبرها البعض بدعا سيئة ويعتبرها البعض الاخر بدعا حسنة كالاحتفال بالمولد النبوي وكانواع من التبرك وغيرها وتعرض ادلة وتناقش . والامر يدور حول وجوه الاستدلال . والجدال الدائر قد لايخلو من تعصب وقد لايلتزم بآداب الجدل الحسن . ويبدو لي ان معالجة كثير من محاربي البدع غير سليمة وكذلك رد فعل ممارس تلك النشاطات . فبعض الممارسين مقلدون والاسلوب المناسب في اعتقادي مع المقلد اذا اراد المصلح اصلاحه هو ان يجعله يثق فيه وفي نزاهته فالمقلد قلد من وثق فيه ولا يمكن ان يغير

ثقته فيه الا بثقته في غيره . واذا لم يكن مقلدا فقد يكون لديه دليل وقد يكون هذا الدليل لايقوي عند التمحيص فينبغي ان يبين له خطأ وجه الاستدلال به برفق وسماحة وموعظة حسنة . من جهة اخري فان بعض محاربي البدع قد يكون علمهم قاصرا وقد تكون وجهة نظر المخالف له صحيحة او انها يحتمل ان تكون صحيحة . ان مما يجعل بعض المقلدين يتمسكون بتقليدهم انهم اخذوا معتقداتهم من علماء لهم مكانة كبيرة وانه يفترض ان تكون لدي هؤلاء العلماء ادلة قادتهم الي هذه الاراء فينبغي علي المصلح ان يأخذ هذه الحقيقة في الاعتبار وهذا لايعني ان هؤلاء العلماء لايخطئون (وكل يؤخذ من كلامه ويرد الا المعصوم صلي الله عليه وسلم).

نخلص من حديثنا عن البدعة بما يلي :-

١/ التأسي بالرسول صلي الله عليه وسلم وهو افضل شيء فاذا واظب الانسان علي عمل الرسول صلي الله عليه وسلم وعمل الصحابة من النوافل والسنن فانها ان شاء الله تكفيه .

٢/ يجب ان لانغير من كيفية العبادة ولا نخالفها.

٣/ اذا وجد الناس ابتدعوا بدعة اضافية قد يكون لها اصل ولو كان فيه ضعف في الفهم ان يجد لهم العذر في الفهم ، ولكن لايدخل فيها.

٤/ اذا نذر الانسان نذرا من عبادة او الزم نفسه بشيء فجائز علي ان لايخالف فيه نصا.

٥/ قد يلزم الانسان نفسه فيخص يوما او وقتا بعبادة ويكون ذلك مناسبا له ولفراغه وسببا في نشاطه ولكن لايعطيه خاصية معينة ولايلزم به الاخرين.

٦/ ان لاتكون عبادته فيها تشدد وتنطع فان الرسول صلي الله عليه وسلم نهي عن التنطع والتشدد.

٨/ ان يكون هناك اصل شرعي لعبادته .

مصادر المعرفة ووسائلها عند المتصوفة (نظريتهم في المعرفة)

يمكن ان نستنبط جل ما سنقول عن مصادر المعرفة ووسائلها عند المتصوفة مما ذكرنا في هذه الرسالة ولكن لا بأس ان نجمع ذلك في عبارات مختصرة ثم نضيف اليها المعارف التي يقول المتصوفة انهم تميزوا بها (وما سنقوله في هذا الخصوص مأخوذ من كتابنا قضايا التصوف الاسلامي) (٥٠).

المصادر:

الكتاب :

السنة :

العالم : (الجماد ـ الانهار ـ الاشجار ـ الجبال ـ الحيوان ـ الانسان).

الله سبحانه وتعالي.

الرسول صلي الله عليه وسلم (رؤيته في المنام).

الرسول صلي الله عليه وسلم (رؤيته يقظة).

الوسائل:

(١) الحس : بالحواس الخمس الظاهرة والحواس الباطنة ومما يتصل بذلك من وسائل الاستقراء والتجربة.

(٢) العقل : (البديهة والحدس والاستنباط).

(٣) السمع (الخبر).

(٤) الكشف (الالهام والرؤيا).

قلنا ان المتصوفة قللوا من شأن الوسائل العادية للمعرفة وسائل الحس والعقل والخبر ولم يستغنوا عنها بالكلية ولكنهم ركزوا علي الكشف كوسيلة للمعرفة واشرنا الي المشكلات الخاصة بالكشف وحجيته كمصدر، والاشكالات الناتجة عن التطبيقات المعينة في استخدام هذه المصادر.

---

(٥٠) عبدالله حسن زروق، قضايا التصوف الاسلامي ص ١٨٢ ـ ١٩٤ .

والكشف عبارة عن خاطر والخاطر اما من الله مباشرة او بواسطة ملك ويختلف الخاطر عن الوسواس الذي هو من عند الشيطان ويختلف عن الهاجس الذي هو من النفس وعلامة كون الوارد خاطرا هو انه يأمر باتباع الشهوات (٥١). والطاعة والخير يعرفان مما ورد في الكتاب والسنة . وقال بعضهم ان الرجل الصالح التقي يميز بين الخاطر والوسواس ولكن هذا المعيار غير منضبط وتكتنفه المخاطر اما المعيار الثابت الذي يمكن ان يعتمد عليه فهو عرض الخاطر علي الكتاب والسنة.

يكتسب الانسان المقدرة علي الكشف بمنهج سلوكي معين منهج يعتمد علي المجاهدة والعبادة والذكر والخلوة والزهد والصمت والسهر وترك الصفات المذمومة والتحلي بالصفات المحمودة ، بترك الدنيا والاقبال علي الاخرة . يقول الغزالي: يتحصلون علي علومهم بالاعمال (بقطع علاقة القلب من الدنيا والاقبال بكنه الهمة علي الله تعالي ولايتم ذلك الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق الدنيوية) (٥٢).

لاشك ان العمل الصحيح النابع من نية سليمة والمجاهدة والعبادة الصادقة الخالصة لوجه الله تورث العلم يقول الله تعالي{ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} (العنكبوت ، ٦٩) ويقول تعالي : {واتقوا الله ويعلمكم الله} (البقرة، ٢٨٢) وهذا لايعني أن المنهج الصوفي ذا المحتوي المعين وذا الطريقة التعبدية المحدودة والمجاهدات الخاصة يورث العلم الصحيح ، وحتي اذا اورثه منهج صوفي صحيح فانه لايعني ان المناهج التي لاتوصف عادة بأنها مناهج صوفية لاتورثه فينبغي ان يكون المنهج التعبدي والطريقة موافقين لمنهج الكتاب والسنة .. وقد يتساءل الانسان عن ما هي المعارف التي يمكن ان يتحصل عليها المتصوفه عن طريق الكشف ؟ والاجابة المختصرة لهذا السؤال هي ان هذه المعارف تتمثل في معرفة صفات النفس وطبيعتها وامراضها وكيفية علاج هذه الامراض ومعرفة فضائل الاخلاق كالصدق والاخلاص والصبر والتوكل والمراقبة والمحاسبة والرضي والانابة والالتجاء والدعاء ومعرفة الرذائل كالحسد والرياء والكبرياء والغضب ومعرفة دقائق الهوي وخفايا الشهوات.

---

(٥١) عبدالله حسن زروق ، قضايا التصوف الاسلامي ص ١٩٠ - ١٩١

(٥٢) المسلم المعاصر نظرية المعرفة عند الغزالي - عبدالله حسن زروق.

وكذلك يقول المتصوفة ان لهم علما بموجودات غير محسوسة قال الغزالي ومن اول الطريق تبدأ المشاهدات والمكاشفات حتي انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وارواح الانبياء ويسمعون لهم اصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقي الحال من مشاهدات الصور والامثال الي درجات يضيق عنها الوصف فلا يحاول معبر ان يعبر عنها الا يشتمل لفظه علي خطأ صريح لايمكنه الاحتراز عنه وعلي الجملة تنتهي الحالة الي قرب يكاد يتخيل منه طائفة الاتحاد وطائفة الحلول وكل ذلك خطأ وقد بينا وجه الخطأ منه في كتاب المقصد الاسني بل الذي لابسته تلك الحالة لاينبغي ان يزيد علي ان يقول:

وكان ما كان مما لست اذكره *** فظن خيرا ولاتسال عن الخبر

يمكن ان نستنبط من هذه النصوص ونصوص اخري ان المتصوفة يقولون انهم يعلمون : (٥٣).

١/ موجودات غيبية كالله والملائكة والجن وارواح الموتى والاتصال بها ورؤياها وسماعها والتحدث معها (٥٤) .

٢/ حوادث المستقبل .

٣/ حادثة في مكان آخر هو علي غير اتصال طبيعي بها .

٤/ معرفة حادثة في الماضي بغير الطريقة المعروفة.

٥/ معرفة ما يدور في ضمير شخص آخر وما يدور في عقله بالاضافة الي هذه الغيبيات فانهم يقولون انهم يعلمون حقيقة النفس وصفاتها وامراضها وطرق علاج هذه الامراض.

٦/ علاج الامراض المعتاده والعقلية والنفسية والعصبية وخاصة الثلاثه الاخيرة

٧/ معرفة كيفية قضاء حوائج الناس وحل مشاكلهم وتحقيق امنياتهم ومقاصدهم.

٨/ معرفة معاني القرآن الكريم والسنة الظاهرة والباطنة ومعرفة علل الاحكام.

٩/ معرفة حقائق الوجود الظاهرة والباطنة.

فهل هنالك ادلة تدل علي امكانية معرفة المتصوفة لهذه الاشياء ؟ نعم هنالك ادلة تدل علي معرفتها . ادلة شرعية وادلة تجريبية وادلة اخبارية ولكن ينبغي ان يكون اسلوب معرفتهم لها مقيدا ببعض القيود.

---

(٥٣) قضايا التصوف الاسلامي ١٩٧ ـ ١٩٨ الغزالي المنقذ من الضلال ص ٥٠

(٥٤) المصدر نفسه ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

وأقصد بالادلة الاخبارية ان العلم بهذه الامور وبوقوعها رواه الثقات ، واقصد بالادلة التجريبية ان هنالك تجارب ـ كما اشرنا الي ذلك سابقا ـ ثبتت في مجال علم البراسايكولوجي او في مجال ما يسمي الادراكات فوق الحسية، واقصد بالادلة الشرعية النصوص التي وردت في الكتاب والسنة والتي تجوز حدوث هذه الامور وسيكون حديثي عن ماورد من ادلة شرعية في هذا المجال.

ان رؤية الله ممكنة عقلا وممكنة شرعا للمسلم في الاخرة فكونها ممكنة عقلا فبين وكونها ممكنة شرعا فلان الرسول صلي الله عليه وسلم قد اخبر بذلك ، فقد ذكر صاحب العقيدة الطحاوية (٥٥). واما الاحاديث الصحيحة عن النبي صلي الله عليه وسلم واصحابه ، الدالة علي رؤيته فمتواترة، رواها الصحاح والمسانيد والسنن فمنها حديث ابي هريرة : (ان ناسا قالوا يارسول الله هل نري ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يارسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها حجاب ؟ قالوا لا قال فانكم ترونه كذلك) اما رؤية الملائكة لغير الرسول فيدل عليها ما رواه البخاري عن اسيد ابن خضير قال : بينما هو يقرأ من الليل بسورة البقرة وفرسه مربوط اذ جالت الفرس فسكت فسكتت ثم قرأ فجالت فانصرف وكان ابنه يحيي قريبا منه فاشفق ان يصيبه امره رفع رأسه الي السماء فاذا مثل الظلة فيها مصابيح فلما اصبح حدث النبي صلي الله عليه وسلم فقال : اقرأ يا ابن خضير، قال : اشفقت يارسول الله ان تطأ يحيي وكان منها قريبا فانصرفت اليه ورفعت رأسي الي السماء اذا مثل الظلة فيها المصابيح فخرجت حتي لا اراها .. قال اوتدري ما ذلك قال لا والله قال : (تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لاصبحت ينظر الناس اليها لاتتواري عنهم) (٥٦).

اما رؤية الجن فيقول بعض العلماء في شانها اننا لايمكن ان نري الجن علي حقيقته لقوله تعالي : {انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونه} (٥٧) ولكن يمكن ان نراه علي غير صورته التي خلق عليها وانما بعد ان يتصوروا ويأخذوا اشكالا وقال ان كلام الشافعي «من قال انه يري الجن ابطلنا شهادته» محمول علي من ادعي رؤيتهم علي صورتهم الحقيقية قال رسول الله صلي الله عليه وسلم للصحابة «ان

---

(٥٥) العقيدة الصحاوية ص ١٤٩ .

(٥٦) قضايا التصوف الاسلامي ص ٢٠٢.

(٥٧) عقد المرجان فيما يتعلق بالجان ص ٣٥ الاية ٢٧ من سورة الاعراف.

بالمدينة نفرا من الجن قد اسلموا واذا رأيتم من هذه الهوام شيئا فانذروه ثلاثا فان بدا لكم - اي ظهر لكم بذلك فاقتلوه (٥٨).

اما معرفة الحوادث التي تحدث في المستقبل فان ظاهر النصوص تبدو متعارضة بشأنها كما انها تعارض بعض الاخبار الواردة بخصوصها يقول الله تعالي : { عالم الغيب فلا يظهر علي غيبه احد الا من ارتضي من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا } (الجن، ٢٦ -٢٧) وقال صلي الله عليه وسلم «لم يبق من النبوة الا المبشرات قيل وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة» (رواه البخاري) وقال رسول الله صلي عليه وسلم «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» (رواه البخاري ومسلم) وقال صلي الله عليه وسلم «لقد كان فيما قبلكم من الامم محدثون فان يكن في امتي احد ، فعمر» (رواه البخاري ومسلم) والتوفيق بين هذه النصوص قيل ان العلم بالحوادث التي في المستقبل لايكون علي سبيل اليقين ولكن علي سبيل الظن ، ومما يدل علي ذلك الاحاديث التي تدل ان الرؤيا في صدقها درجات وان الرؤيا تكاد لاتكذب قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «اذا اقترب الزمان اي اذا قاربت القيامة لم تكد رؤيا المسلم تكذب واصدقكم رؤيا اصدقكم حديثا » (رواه مسلم) وكذلك الاخبار التي توحي بها الجن والشياطين للانسان فانها لاتكون دائما صادقة قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرها - اي يرددها - في اذن وليه قر الدجاجة فيخلطون ، معها مائة كذبة » (رواه مسلم).

وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : «ان الملائكة تنزل من العنان وهو السحاب - فتذكر الامر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه الي الكهان فيكذبون مائة كذبة من عند انفسهم » (رواه البخاري).

اما معرفة الحادثة في مكان آخر او في الماضي بغير طرق الحواس المعلومة فجائز لانه من جنس الامر الخارق للعادة والذي يسمي كرامة (اذا استوفي شروط الكرامة - انظر شروط الكرامة) ويدل عليه حديث الرسول صلي الله عليه وسلم «لقد كان فيما قبلكم من الامم محدثون فان يك في امتي احد ، فعمر» (متفق عليه).

---

(٥٨) رواه مسلم انظر عقد المرجان فيما يتعلق بالجان ص ٤٠ .

اما معرفة ما يدور في ذهن شخص آخر فانه قد يحدث علي سبيل الفراسة قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله» (الترمذي ، باب التفسير) ويمكن ان تعد المعرفة هذه من سبيل الكرامة والامر الخارق للعادة .

ان المعارف الاخري التي يدعون معرفتها جائزة وممكنة ولقد حدث وقوعها وانها ممكنة ما دامت في حدود الممكن شرعا فعلاج النفس والابدان ممكن بالتدبير والسعي العادي وبالدعاء والرقيا وبارادة الله وعونه ومعرفة معاني القرآن الكريم والسنة جائزة ما دامت هذه المعارف لاتعارض بعضها بعضا وما دام لا يعارض الباطن منها الظاهر .

نظرية التصوف في تفسير النصوص

لقد ذكرنا في حديثنا عن اصول التصوف ونظرية المعرفة الصوفية ان من وسائل المعرفة عند المتصوفة الكشف والالهام وقلنا ان الكشف والالهام قد يكونا مباشرين او قد يكون الكشف بانكشاف معان خاصة من القرآن والسنة للمتصوف . وقلنا ان المتصوف قد يشارك غيره في فهم النصوص بالطرق العادية وهي فهم النصوص وتفسيرها عن طريق فهم فقه اللغة واساليبها ومعرفة الناسخ والمنسوخ واسباب النزول وتفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة.

ومن ناحية اخري فان بعض المتصوفة يعتقدون ان تفسيرهم الناتج عن الالهام يمثل العلم الحقيقي او ما اسموه علم الحقيقة والتفسير بالطرق العادية ، يمثل علم الشريعة ونجدهم يشيرون الي علم الحقيقة تارة بالعلم الباطن وتارة بالعلم اللدني ولعلم الشريعة بعلم الظاهر ويقولون اذا تعارض علم الحقيقة مع علم الشريعة ينبغي ان نقدم علم الحقيقة واستدلوا علي وجود علم الحقيقة وامكانية تعارضه مع علم الشريعة بقصة الخضر التي وردت في سورة الكهف وبحديث لابي هريرة . فمن استدل بهذين الدليلين اعتقد انهما يدلان علي امكانية تعارض ما اسموه بعلم الحقيقة مع علم الشريعة واعتبروا ان علم موسى ومباديء موسى عليه السلام هي مباديء علم الشريعة ومباديء وعلم واحكام الخضر هي مباديء علم الحقيقة ولكنهم اذا امعنوا النظر لعلموا انه لاتعارض في الحقيقة بين مباديء موسى ومباديء الخضر لان موسى ظن ان افعال الخضر تعارض مبدأ عدم الحاق الضرر بالاخرين ومبدأ المعاملة بالمثل ومبدأ حرمة قتل النفس البريئة ولكن عندما بين الخضر لموسى الاسباب التي جعلته يغرق السفينة ويقتل الطفل ويأخذ الاجر بطريقة لايشوبها غموض اقتنع موسي عليه السلام ولم يعترض وعلم عكس ما اعتقد ان خرق السفينة ليس فيه اضرار باصحابها واخذ الاجر شريعة عدل يمكن ان تتجاوزها شريعة الفضل وان قتل الطفل فيه مصلحة . عندما علم موسي الاسباب التي كانت خافية عليه قبل هذه الافعال ولم يستنكرها لان استنكاره لها كان بسبب جهله بهذه الاسباب . معني هذا انه في التحليل النهائي هنالك اتفاق بين موسى والخضر حول المباديء الاساسية ولكن هنالك اختلاف في معرفة الحقائق التي تؤثر في تطبيق هذه المباديء.

من ناحية اخري فان حديث ابي هريرة الذي روي عنه انه قال فيه اخذت عن رسول الله صلي الله عليه وسلم جرابين جرابا بثثته بينكم وجرابا لو ذكرته لقطع مني هذا البلعوم ليس بالضرورة يدل علي ان هنالك حقائق باطنية تناقض حقائق الشرع وكل ما هنالك ان ابا هريرة يقصد انه لو اباح بما سيكون من احداث سياسية فانه سيقطع منه البلعوم لان تلك الاحداث قد تنبيء بزوال حكم بعض الولاة والملوك ومما يؤيد ذلك ما قاله عبدالله بن عمر فقد قال لو اخبركم ابوهريرة انكم تقتلون خليفتكم وتفعلون كذا وكذا قلتم كذب ابوهريرة . واظهار هذا تكرهه الملوك لما فيه من الاخبار بتغيير دولتهم وذكر سعيد حوي في تعليقه عن هذا الحديث ان الجراب الثاني لمح عنه ابوهريرة عندما كان يقول اعوذ بالله ان تدركني سنة إمرة الصبيان وقد تبين بعد ذلك انه يعني إمرة يزيد بن معاوية . فإذن الامر مرتبط ببعض احداث سياسية معينة ستجري علي الامة لو تكلم بها لقتل بسبب ما ستتركه من آثار علي الامة . فقد ثبت عن علي كرم الله وجهه من الاحاديث الصحيحة انه لما قيل له هل عندكم من رسول الله صلي عليه وسلم كتاب فقال : لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما اسر الينا رسول الله صلي الله عليه وسلم شيئا كتمه علي غيرنا الا فهما يؤتيه الله لعبد في كتابه.

وسيدنا عمر الذي قال بشأنه الرسول صلي الله عليه وسلم «قد كان في الامم قبلكم محدثون فان يكن في امتي احد فعمر» كان يعرض ما يقع عليه علي ما جاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر وتارة يخالفه فيرجع كما رجع في صلح الحديبية وفي حروب الردة وفي وفاة رسول الله صلي الله عليه وسلم .

الشطح:

ان الحكم علي اقوال المتصوفة العادية لا مشكلة فيه انما المشكل في الحكم علي اقوالهم الشاطحة . كقول الحلاج انا الحق وكقول ابن عربي :

عقد الخلائق في الاله عقائدا وانا اعتقدت جميع ما اعتقدوه.

وقوله :

فيحمدني واحمده ويعبدني واعبده.

ولقد عرف الطوسي الشطح فقال :الشطح معناه عبارة مستغربة في وصف وجد

فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته الا تري ان الماء الكثير اذا جري في نهر ضيق فيفيض من حافتيه يقال شطح الماء في النهر فكذلك المريد الواجد اذا قوي وجده ولم يطق حمل ما يرد عليه قلبه من سطوة انوار حقائقه سطع ذلك علي لسانه فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة علي فهوم سامعيها الا من كان من اهلها ويكون متبحرا في علمها فسمي ذلك علي لسان اهل الاصلاح شطحا . (٥٩).

ان هذا التعريف متعاطف مع ظاهرة الشطح . والامر في تقديري يحتاج الي معايير ادق للحكم علي ظاهرة الشطح وهو ما سنحاول ان نعطيه فيما يلي من حديث .

معايير الحكم علي النص الصوفي

كنت قد اوردت هذه المعايير في البحث الذي نشرته بعنوان قضايا التصوف الاسلامي وفي كتابي (٦٠) بنفس العنوان ولاهمية هذه المعايير اود ان اضمنها هذه الرسالة مع بعض الاضافات : وهي :

١/ هل ما نسب الي احد المتصوفه كالبسطامي او الشبلي او ابن عربي مثلا من اقوال هي له حقا او لا ؟

٢/ هل ما نسب اليه له معني مفهوم ام لا ؟ فمن لم يفهم معني اي قول ينبغي الا يحكم عليه بالصحة او بالبطلان ولاتثريب عليه ولا مسؤولية في ذلك من ناحية اخري فان بعض الاقوال المتصوفة يعبر عنها بطريقة رمزية والذي دفعهم للتعبير بهذه الطريقة هي انهم قد يخافون من ان يبوحوا ببعض المعاني حتي لاتجر عليهم عقوبة او عداوة او مقاطعة او انهم لايريدون ان يكتسب هذه المعاني من هم ليسوا اهلها او من قد تؤثر عليهم تاثيرا سلبيا وقد يكون الدافع من وراء عدم الافصاح عنها صراحة هو الضن بها (٦١).

---

(٥٩) الطوسي ، اللمع ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٦٠) عبدالله حسن زروق ، قضايا التصوف الإسلامي ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٥ .

(٦١) ومن امثلة العبارات التي يستعملونها :

حمام : الواردات الالهية .

بان : شجر البان يرمز به للعبد والنور والتنزيه والشوق والتوقان .

برق : مشهد الذات الالهية يذهب الابصار ولا يكاد يتحقق فالبرق لايريك الا لمعانه فيكون اللمعان حجابا عليه .

اجمر : رمز للشهوة والجمال .

٣/ اذا قاله وصح عنه وكان له معني مفهوم هل له قول آخر يعارضه فاذا كان له قول آخر يعارضه فينظر في الجمع بين القولين ان امكن او ترجيح واحد منهما اذا لزم القول الراجح فذلك من العدل والانصاف واذا تعذر الترجيح فيمكن ان يحكم علي القائل بالتناقض وهو من الامور غير المحمودة بشرط ان لايكون قد عدل عن احد الرأيين .

٤/ اذا صح عنه وكان له معني مفهوم وليس له قول آخر يعارضه هل يمكن ان يؤول تأويلا مقبولا تبيحه قوانين اللغة والفهم السليم والمنطق الصحيح ويتفق مع بقية احكام الشريعة وغيرها من ضوابط التأويل ، والامر يحتاج الي تحديد معايير صحيحة وموضوعية لفهم النص الشرعي وتحديد معايير صحيحة وموضوعية لفهم النص الصوفي بحيث يكون قبول النص الصوفي مرتكزا علي التوافق بين دلالة النص الصوفي ودلالة النصوص الشرعية ذات الصلة وتحديد دلالة النص الشرعي والصوفي ينبغي ان يرتكز بدوره علي معايير موضوعية والمعايير التالية معايير لتحديد دلالة النص الشرعي .

(١) أ- تفسير القرآن بالقرآن .

ب - تفسير القرآن بالسنة .

ج - تفسير القرآن باقوال الصحابة .

د- يجب ان يكون المفسر عالما بالناسخ والمنسوخ.

هـ يجب ان يكون المفسر عالما بأسباب النزول .

و- يجب ان يكون المفسر عالما بعادات العرب واعرافهم في الاقوال والافعال .

ي - يجب ان يكون عالما باللغة العربية .

يجب ان يعطي المفسر اعتبارا لنصوص الدين الاخري من الايات والاحاديث التي لها صلة بالنص المراد تفسيره .

يجب علي المفسر ان يوفق في تفسيره بين العقل والنقل وهذا وفق معايير معينة . ينبغي للمفسر العلم باحوال مجتمعه وعصره واعراف الناس وهذا يقتضي ان يلم بجانب من علوم العصر .

ان يتسم بالتقوى والورع والعدل .

ومعايير تفسير النص الصوفي يمكن تلخيصها كالاتي :

ان يكون التفسير متسقا مع قواعد اللغة .

اذا كان الحديث معبرا عنه برموز ان يعلم معاني هذه الرموز.

التوفيق بينه وبين اقواله الاخري.

تفسير قوله بأقواله الاخري.

ان يعطي اعتبارا لتفسير اقطاب الصوفية له فالقوم يعلم بعضهم مقاصد البعض الاخر.

٥/ حتي لو انه امكن ان تؤول العبارة الشاطحة تأويلا لايتعارض مع الشرع مثل قول احدهم «معبودكم تحت قدمي» وهذا مقال سهل تأويله ليتفق مع الشرع - لكن بعض الامثلة يستحيل تأويلها - بحيث يقال المقصود من المعبود المال حتي تعتبر العبارة بعد اجراء عملية التبديل للالفاظ «والمال تحت قدمي» نقول لايجوز القاء مثل هذه العبارات الذكية التي قد تلتبس معانيها علي عامة الناس بل حتي علي خاصتهم فيعتقدون اعتقادات فاسدة او يرددونها من غير فهم او تدخلهم في حرج لانها صدرت ممن يعتقدون صلاحه وولايته والامر متصل بالتعبير عن النفس بعبارات رمزية ، قد ذكرنا الاسباب التي تجعل الصوفي يستخدم الرمز، ولكن عندما تكون العبارة الرمزية لها تفسيرات مختلفة ينبغي ان يحذر صاحبها من التباس معناها بمعني فاسد وغير مقبول.

٦/ اذا تعذر تأويله هل يمكن ان يعذر صاحبه لانه قد يقال ان القوم - وصاحبنا ينتمي اليهم - اهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتي ينطقوا بما لايقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجنون معذور وكذلك منه في حالة سكره انه من المقبول ان يعذر الشخص الذي لايعي مايقول ولكن الغريب ان حالة عدم المسؤولية هذه تعد محمودة عند بعضهم، وان بعضهم عندما يفيق من سكرته هذه لاينكر ما قاله وهو في تلك الحال، بل علي العكس من ذلك يحاول ان يأتي بحجج منطقية لبرهان تلك الاقوال التي صدرت عنه في حالة الغيبة ، والحلاج عندما ذكرت له اقواله الشاطحة لم ينكرها . وعموما يجب ان يحترز الشخص من ان تحدث له حالة غيبة او سكر او ماشابهها الا ان تكون بغير اختياره وارادته ولايمكنه التحرز منها لكننا كما ذكرنا في حديثنا عن اصناف المتصوفة نري ان هذه الحالة قد تعد ممدوحة بالمقارنة الي حالة اسوأ منها وهي حالة ضعف الايمان وقسوة القلب والغفلة.

٧/ بعضهم يقول اذا علم الشخص شيئا يعارض الشرع يجب ان لايبوح به ويكتمه وكأن الجريرة في الافصاح وحده ، ونسي ان الامر في ذاته منكر ولقد استدلوا علي رأيهم هذا بحديث ابي هريرة وبقصة الخضر وهما لايدلان عن شئ

مما ارادوا. وهذا لايتعارض مع مخاطبة الناس قدر عقولهم وحسب خلفياتهم الثقافية ومقدراتهم العلمية والامر متصل بما يسمي علم الخاصة وعلم العامة او علم الحقيقة «العلم اللدني» وعلم الشريعة او علم الظاهر. ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع لكتاب قضايا «التصوف الاسلامي».

٨/ وقد يقال ان الحكم علي الاقوال المتصوفة لايمكن ان يكون الا اذا كان الذي اصدر الحكم مر بتجارب صوفية واكتسب ذوقا معينا فيما يفصح عنه المتصوفة من حقائق – اذا امكن ذلك – لايمكن ان يدرك الا بالذوق والتجربة.

الحجة تقول ان الانسان لايمكن ان يدرك مزايا التصوف ومحاسنه ومعارفه الا بأن يجرب ويتذوق بنفسه ومن ذاق عرف ومقدرة التذوق هذه عبارة عن حاسة معينة تجعله يدرك امورا لايدركها غيره، فالاعمي الذي لايدرك الالوان لايحق له ان ينكر وجود الالوان، لانه لايملك الحاسة التي تمكنه من ادراك الالوان. اذا اردت ان تعرف فجرب واذا اردت ان تذوق فاسلك الطريق التي توصلك الي مرحلة التذوق واكتساب الحاسة، وهذا الطريق يتمثل في مجاهدة النفس وشهواتها وحرمانها من الاكل بالجوع ومن النوم بالسهر ومن الاجتماع بالعزلة ومن الكلام بالصمت وبالزهد وبالعبادة او الذكر والتأمل وبالاتصاف بالاخلاق وبترك الدنيا والتعلق بالآخرة.

ينبغي لمن يدعو الآخرين لسلوك هذا الطريق ان يعطي المدعو اسبابا ومبررات تقنعه بجدوي سلوك هذا الطريق فالطريق عادة يوصل الي غاية فاذا كانت الغاية حميدة وجميلة وحسنة وذات قيمة فانها بذلك تستحق ان يقطع لها الطريق ويتحمل في سبيلها المشاق والتضحيات، والغايات المقصودة اما ان تتحقق في الدنيا، او في الآخرة. ان من مبررات الاخذ بهذا الطريق نجدها مكتوبة في كتب التصوف . ان اصحاب هذا الطريق سيحصلون علي السعادة في الدنيا وعلي المعارف الكشفية وستحدث علي أيديهم الكرامات وسيفنون في الذات الالهية. وستحدث لهم لذات الاستغراق والانس بالله في مشهد من الجمال والجلال والعظمة، انها لذة نعيم الجنة ولذة النظر الي وجه الكريم ولذة رضوانه وعفوه، من ناحية اخري فان الغاية لاتبرر كل وسيلة «طريقة» للحصول عليها، كما وانه من غير المسلم به ان كل الغايات التي ذكرها المتصوفة تمثل افضل الغايات التي ذكرها المتصوفة «مثلا حدوث الكرامات علي ايديهم. بعض المتصوفة لايعدون هذا هدفا امثل».

ومن غير المسلم به ان الطريقة الصوفية هي الطريقة الوحيدة التي تقود لسعادة الدنيا والآخرة.

ان التبرير الحقيقي للطريقة الصوفية هو اقتفاؤها طريقة الرسول ﷺ التي تتمثل في عبادة الله والتقرب اليه بما شرع واخلاص النية في ذلك.

كانت حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة جهادا لاقامة الحق والعدل والخير وازالة الباطل بالنفس والمال والوقت، وكانت حياة الصحابة جهدا وصبرا ومصابرة فقد كانوا يقضون بين الناس في منازعاتهم ويصلون المصالح والخيرات اليهم ولانفسهم، وكانت حياتهم فيها مكابدة للحصول علي الرزق والقيام بشؤون الزوجات والاولاد، كانت حياة حركة يتقي المؤمن منهم فيها الله ويخشاه. وكانت مع ذلك حافلة بالذكر والعبادة وتتسم بالزهد، هذه الحياة يسميها بعضهم بحياة الصحبة مقارنة بحياة العزلة والخلوة ولكل حياة ابتلاءاتها الخاصة بها ولايمكن ان يأمن احد مكر الله ابدا في اي من الحياتين فلا يأمن مكر الله الا الخاسرون.

ولكن افضل طريقة للحياة هي التي كان عليها رسول الله ﷺ وصحابته الميامين والتي توصل الي السعادة الحقيقية سعادة الآخرة التي لاتشوبها شائبة.

بقي ان نقول ان من ليست لديه الحاسة التي تمكنه من الحكم علي التجارب الصوفية لايحق له ان يكذبها ولكن في نفس الوقت لايلزمه ان يصدق بها اذا جربها ولايجربها الا من يحياها ولايحياها الا من يجد جدوي في ان يحيا وفقها. ولكن قد يتصور الانسان هذه التجارب ويصدقها بدليل مستقل غير دليل التجربة المباشرة. فتصديقه لها يشبه تصديق من لم يجرب ظواهر الادراك فوق الحسي «ES.P» فهو قد يصدق بها لثقته في قائلها او لأنها لايمكن ان تحدث بالصدفة او بتجربة تعتمد علي ماعنده من حواس وليس علي الحاسة المزعومة.

التصوف والاخلاق :

اهتم المتصوفة عموما بمسألة الاخلاق وكثيرا ماقالوا ان غرض علم التصوف اصلاح النفس والخلق ولقد حثوا الناس علي التحلي بالفضائل كالصدق والحياء والتواضع وتجنب الرذائل كالرياء والحسد، ومنهجهم في تربية الناس ليتحلوا بهذه الفضائل ويتجنبوا هذه الرذائل ببيان اوجه حسن الفضائل وقبح الرذائل وحث الناس علي مجاهدة نفوسهم وتكلف السلوك الحسن حتي يصير صفة للانسان ثابتة وخلقا راسخا، ومن اهم الاسباب التي تعينه علي اكتساب الخلق الحسن اتخاذه مرشدا او شيخا او مربيا له علم ودراية بطبائع النفوس وامراضها فيتدرج به حتي يوصله الي مقام رفيع من مقامات السلوك الحسن، يعلم الشيخ تلميذه مراقبة النفس ومحاسبتها والنظر في عيوبها اكثر من النظر في عيوب الاخرين، ولعل منهج بعض المتصوفة يركز علي اصلاح الفرد وليس علي اصلاح البيئة والجماعة او اصلاح مؤسساتهم ويهتم بالاخلاق الفردية كالصبر والمجاهدة، وليس بالاخلاق الجماعية كأخلاق القوة، البذل والعطاء، والاخلاق الناتجة من مجاهدات الحياة العامة وينادي بالعزلة والفقر والتوكل السلبي «التواكل». واذا اعتبرت الاخلاق نهجا وطريقة للحياة المثلي فان التصوف عادة يفضل ويدعو الي حياة الزهد والعبادة والذكر والعزلة والي الحياة ذات الطابع الروحي التي تتسم بترك وعدم تناول ملذات الحياة الدنيا، اي التي تتسم بمجاهدة النفس ومقاومة شهواتها ورغباتها. ان المجاهدة والرياضة تمثل الجانب الاساسي في منهج التربية الخلقية عند المتصوفة امثال الغزالي. والغزالي يري ان الغرائز طبيعية في الانسان لو اراد قمعها بالكلية حتي لايبقي لها اثر لم يقدر علي ذلك. اذن يجب ان يقودها ويسوسها بالرياضة والمجاهدة حتي يقدر عليها ويتدرج معها حتي يقمعها كلية او يجعل لها نصيبا يسيرا. من ناحية اخرى فان بعض المتصوفة يدعو الانسان ان يصير انسانا كاملا والانسان الكامل عند بعضهم هو الانسان الشبيه بالاله او الله.

والحديث عن الاخلاق متصل بالحديث عن كيف يتم الفعل الخلقي، والغزالي نظرية في كيف يتم الفعل عامة وكيف يتم الفعل الخلقي خاصة فعنده يتم الفعل عن طريق جهاز نفسي مكون من الغرائز او الشهوة والعقل. والغرائز عنده اربعة: غريزة الشهوة «شهوتي البطن والفرج» وغريزة الغضب «غريزة الدفاع والاعتداء» وغريزة العلو وغريزة الخداع والحيلة. ويري الغزالي ان هنالك ثلاثة احتمالات

لكيفية حدوث الفعل: الاول ان يكون هنالك انسجام بين الدوافع والرغبات والنزعات. والثاني ان يضعف العقل وتنتصر الرغبات والشهوات وفي حالة قوة الرغبات والشهوات وضعف العقل تحدث الحيل العقلية ويكون العقل ذيلا وتابعا للشهوات ولكن العقل قد يقوى ويكون زاجرا للشهوات كما هو الحال عندما يرغب الانسان المريض في بعض الاطعمة التي قد تضره ويقول ان انتصار العقل علي الشهوة ليس دائما بقوة عقلية مجردة بان يأمره العقل فتطيع الجوارح ولكنه يكون في كثير من الاحيان بالمجاهدة والتقوى وبمعونة من الله سبحانه وتعالي فالغزالي هنا يعطي دورا للعقل في السلوك خلاف بعض المتصوفة الذين يهملون دوره بالكلية.

التصوف والسعادة

يري معظم المتصوفة ان السعادة في ترك الدنيا وملذاتها وفي مقاومة شهوات النفس ورغباتها ويعتقدون ان السعادة الحقيقية في الحياة الروحية التي تتمثل في حياة العبادة والذكر ومناجاة الخالق والانس به والاستغراق في هذا المشهد بجلاله وجماله وعظمته وبهائه حتي لايلتفت المريد الي ماسواه. انها تجربة المحبة الالهية. وقمة هذه التجربة عند بعضهم ان يفني المريد في الذات الالهية او يتحد بها.

ان الانسان كائن له جسد وروح تكون سعادته في توازن اشباع الطبيعتين وانه من المشاهد ان عائد اللذة من النشاط الروحي بمفرده قد يكون متناقصا اذا تجاوز حدا معينا. لذلك نهي الدين عن قمع شهوات النفس بالكلية. ولايمنع ذلك من القول بان طبائع الناس واستعداداتهم مختلفة فان بعض الناس قد يكون اكتفاؤه من متطلبات الجسد بقدر يسير واشواق روحه عظيمة واكتفاؤه من لذات الروح لاتنتهي بالقدر اليسير «لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع انظر الفصل الخامس بمفهوم السعادة في الاسلام في كتاب سيتم نشره ان شاء الله بعنوان«الاخلاق من منظور اسلامي».

الفلسفة والتصوف

تعرف الفلسفة عادة بأنها نشاط ذهني وعقلاني يصل الي تحديد مفاهيمه واحكامه عن طريق البرهان والنظر العقلي وعن طريق التأمل والتدبر، اما التصوف فهو يعتبر عادة شيئا مغايرا ومخالفا للفلسفة فهو يتوصل الي مفاهيمه واحكامه عن طريق الكشف وليس عن طريق الدراسة والفكر والنظر العقلي المجرد ولكن يكتسبها عن طريق المجاهدة والرياضة والسلوك والعمل وباتخاذ اسلوب ونهج معين في الحياة. اذا كان الامر كذلك فهل يحق للفلسفة ان تتحدث عن التصوف؟ وهل يجوز القول بأن هنالك فلسفة للتصوف؟ كثير من الباحثين يعتبر ان هنالك فلسفة للتصوف. وهذه الفلسفة في نظرهم تتمثل في نظرية للتصوف في المعرفة وتتمثل فيما يعتبره المتصوفة طريق الحياة الامثل وطريق الحياة الامثل يتحقق عندهم باتخاذ طريق الزهد والعبادة والذكر والعزلة والمحبة.. «وهذا المبحث – في طريق الحياة الامثل يقع في نطاق فلسفة الاخلاق» وهنالك لفيف من الباحثين يعتبر فلسفة التصوف تتمثل في النظريات التي تتحدث عن طبيعة الموجودات كنظرية وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتي تتناول صفة وجود الله وصفة وجود العالم ووجود الانسان.. فبعض المتصوفة يري ان الوجود شئ واحد رغم الكثرة الظاهرة للموجودات وهؤلاء هم اصحاب نظرية وحدة الوجود وما الاشياء «الانسان والحيوان» في نظر هؤلاء الا تجليات لله في مخلوقاته ويري آخرون ان طبيعة الوجود ذات صفة ثنائية فالانسان كموجود عندما تسمو روحه تحل فيه الذات الالهية فيصير بطبيعتين طبيعة انسانية «ناسوت» وطبيعة الهية «لاهوت» «وسوف نعرض لهذه النظريات بالتحليل والنقد».

بالاضافة الي ذلك فان هنالك صلة بين الفلسفة والتصوف تتمثل في ان للمتصوفة نظرية خاصة في تحديد معاني الالفاظ ودلالاتها يمكن النظر فيها ومقارنتها مع الآراء الفلسفية المختلفة في هذا المجال ولايعني هذا ان ماذكرنا من صلات بين الفلسفة والتصوف يمثل كل الصلات المختلفة بين التصوف والفلسفة ولكن يمثل في اعتقادنا اهم هذه الصلات.

التجـربة الصوفـية بين الوهــم والحقيقـة :

يري بعض المتصوفة ان علمهم هو علم الحقيقة وعلم غيرهم هو علم الظاهر ويرون ان هذا العالم الظاهر هو عالم الظلال والخيال والوهم، ويرى معارضوهم ان تصورات المتصوفة الناتجة عن انواع معينة من التأمل والعزلة والتي قد تتعطل فيها افكارهم واحساساتهم العادية تدخلهم في عالم الوهم والخيال لا عالم الحقيقة العميقة كما يزعمون، والحقيقة ان عالم الحقيقة بالنسبة للانسان هو العالم الذي يراه وهو في حال معينة فالذي يكون تحت تأثير المخدرات مثلا يري العالم بطريقة مخالفة لرؤيته له وهو ليس تحت تأثيرها. فالمتصوفة يعلمون عالمنا العادي ولكنهم يدعون انهم يعلمون عالما آخر لايعلمه الا من هو في حالهم ومن جربه وذاقه واحس به.

السؤال كيف يعلم غيرهم هذا العالم ويكون له مدخل فيه؟ وهل من حق من هو خارج عن عالم معين ان يتحدث عن هذا العالم ويحكم علي احكام الذي يعيش فيه؟ وهل يصح للذي يعيش في العالم غير العادي ان لايصدق او يشك في احكامه عن عالمه لان تصديقه في احكام عن عالمه قد ينفي او يعارض تصديقه في احكامه او سلوكه او احكام غيره او سلوكه عن العالم الآخر فالذي هو منغمس في العالم غير العادي يكون شعوره بالعالم العادي معطلا وقد يظن ان مايحس به بالنسبة للعالم غير العادي ينطبق علي العالم العادي «والعكس قد يكون صحيحا» وهنا تكمن الخطورة. اي العالمين ينبغي ان يضبط احكامنا عن العالم الآخر؟ او هل كل عالم ينبغي ان يضبط احكامنا عن العالم الآخر او هل كل عالم منفصل ولامدخل له في العالم الآخر؟

ان الذين يعيشون في العالم غير العادي ويمرون بتجاربه في العادة اكثر تصديقا لما يقال عنه من الذين لايمرون بتلك التجارب والذين لايمرون بها بعضهم سهل اقناعه بطبعه وبعضهم صعب اقناعه بطبعه ايضا. ومن ناحية اخري فان الذين يحسون بالعالم غير العادي يقولون انهم لايستطيعون ان ينقلوا تجاربهم عن عالمهم لغيرهم. فهل السبب في ذلك ان الذي يشعرون به ويريدون ان ينقلوه غير متسق في ذاته وغير مفهوم لديهم انفسهم وانه لايمثل حقيقة يمكن ان تنقل او لأن لغة العالم الآخر لاتسع التعبير عنه.

وكما اشرت سابقا فهناك طريقان لايجاد مدخل للذي لم يمر بالتجارب

الصوفية ولم يعشها احداهما ان يتم اقناعه بدليل مستقل حسب ماالديه من وسائل المعرفة او اقناعه بأن يكتسب الوسائل التي تقود اليها والتي لايملكها، واقناعه باكتسابها يتم باعطائه دراسة جدوي لاكتسابها وذلك بذكر النتائج المترتبة علي اكتسابها. بالاضافة الي هذا يمكن جعل من ليس له علم بهذا العالم ان يصدق بوجوده باثبات ان رواة حقائقه ثقات يعتمد ويعتد بكلامهم.

قضايا التصوف وموضوعاته :

لقد تناولت مجموعة كبيرة من قضايا التصوف وموضوعاته في كتابي: «قضايا التصوف الاسلامي» بالدراسة وحاولت ان اعطي الاحكام الشرعية الخاصة بها والان اريد ان اعطي قائمة بهذه القضايا مع بعض الاضافات لقضايا لم اذكرها هناك ثم بعد ذلك احاول ان اعطي نبذة مختصرة عن بعض القضايا والمفاهيم كقضية الزهد والعزلة والعبادة والذكر وهذه النبذة عبارة عن ملخص النتائج التي توصلت اليها في الكتاب مع شئ من التنقيح وبعض الاضافات، وهذه بعض القضايا:

العزلة «شرط العزلة، انواعها، محاسن ومنافع العزلة، مضار العزلة» الحال والمقام، التوبة، الصبر، التوكل، المحبة، الرضا مفارقة الرضا، الخوف والرجاء «ايهما افضل الخوف ام الرجاء» الفرق بين الاتحاد والحلول ووحدة الوجود الفناء، الاتحاد، الحلول وحدة الوجود، وحدة الاديان، الولاية، الشيخ والسالك والمريد، الكرامة، المجاهدة، مراتب السالكين، الشكر، الفقر، الغنى، المراقبة والمحاسبة، الشوق، الوجد السماع، البقاء القبض والبسط، الجمع والفرق، السكر والصحو المحو والاثبات الكشف والالهام، اللوائح والطوالع، اللوامع، الصحبة، المرقعة والخرقة، الرمز، الاشارة التأويل، الانس، الغيبة والحضور، الرؤيا الظاهر والباطن، الحقيقة والشريعة، الخواطر، الوساوس، الهواجس الواردات، الحيرة، الستر والتجلي، الدعاء، الاخلاص، الورع، التقوى، الاخلاق الحميدة، الصدق السخاء، الرذائل، الحسد، الكبرياء، العجب، الرياء، امراض النفوس وعلاجها، السعادة، الولي، ختم الولاية، الابدال، النجباء النقباء، الافراد، الاعراف، الغوث، الاقطاب، الاوتاد، الديوان، الشطح، الانسان الكامل، رفع التكاليف، الفتوى ، الحقيقة المحمدية، النور المحمدي، الاعيان الثابتة، الجبر، التشبيه والتنزيه، الاستغاثة، القباب والاضرحة، الشفاعة، التوسل، البيعة، الخوانك والتكايا الوظيفية والهيللة، العلاج والرقيا، السحر، الجن، المولد النبوي... الخ ويمكن كتابة قاموس كامل لهذه الالفاظ والمفاهيم.

الزهد:

عرف الغزالي [٦٢] الزهد بأنه عزوف النفس عن الدنيا وانزوائها عنها طوعا مع القدرة عليها والرغبة في الآخرة. والزهد درجات:

١/ زهد في الحرام والاخذ بكل مباح - وهو زهد العوام.

٢/ زهد بمعني ترك الحرام والاخذ بالضروري من المباح اخذا قد لاتصاحبه النية وقيل هو زهد الخواص.

٣/ وزهد بمعني ان لايعمل عملا الا بنية التقرب الي الله سبحانه وتعالي فهو يأخذ الضروري اخذا تصاحبه النية. واختلف الفقهاء في هل الزهد يعني ترك المباح وهل افضل الزهد في المباحات ام الاخذ بها. اورد الشاطبي حججا للاخذ بالمباح وحججا لتركه، والحجج التي اوردها لترك المباح والزهد فيه منها قوله تعالي: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله علي كل شئ مقتدراً) «الكهف، ٤٥» وقوله تعالي: (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهوزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) «الحديد، ٢٠» ومنها قوله ﷺ «اللهم لاعيش الا عيش الآخرة» «رواه البخاري».

وعن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقول «والله يا ابن اختي كنا ننظر الي الهلال ثلاثة اهلة في شهرين وما اوقد في بيت رسول الله ﷺ نار فقلت يا خالة فما كان عيشكم قالت: الاسودان التمر والماء الا انه كان لرسول الله جيران من الانصار - وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون الي رسول الله ﷺ من البانها» «متفق عليه» وقد نقل عن الصحابة انهم تركوا التنزه في المطعم والمشرب والمركب والسكن واعرفهم في ذلك عمر بن الخطاب وابوذر وسلمان وابوعبيدة بن الجراح وعلي بن ابي طالب وغيرهم.

من ناحية اخري يري بعضهم ان خيرات الدنيا قد خلقها الله سبحانه وتعالي وسخرها للمؤمنين للانتفاع بها وانها هدية من الله لايجوز ردها، وواجبها اخذها بحقها وشكر الله عليها.

---

(٦٢) قضايا التصوف ص١٥

قال تعالي: (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) «الاعراف، ٣٢» ويقول تعالي: (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) «النحل،١٤» ويقول الرسول ﷺ «اذا آتاك الله مالا فلير اثر نعمة الله عليك» «رواه ابوداوود والترمزي».

من ناحية اخري اورد الشاطبي [٦٣] حججا بشأن ترك المباح نلخصها كالتالي:

١/ فعل المباح فيه اشتغال عما هو الاهم في الدنيا من العمل بنوافل الخيرات مثلا بدلا من ان يصرف المؤمن وقته في عمل مباح «سمر بريئ» يمكن ان يصرفه في عمل من اعمال الخيرات كأن يقضي وقته في قراءة القرآن او يشتغل بمساعدة او قضاء حوائج الآخرين.

٢/ فعل المباح سبب للانشغال عن الواجبات مثلا اللعب او السمر او مشاهدة مباراة كرة القدم في وقت الصلاة حتي يفوت وقتها.

٣/ فعل المباح قد يكون وسيلة للممنوعات مثلا كالفراغ للشباب.

٤/ المباح «او مايبدو مباحا» واجب تركه من قبيل التحوط والحذر لانه كثيرا مايكون في المباحات اشكال في هل هي حقيقة مباحة ام غير مباحة وفي الحديث «لايبلغ العبد ان يكون من المتقين حتي يدع مالا بأس به حذرا من البأس» فينبغي ان نوفق بين هذه النصوص التي تبدو في الظاهر انها متعارضة كما ينبغي ان نجيب علي الاشكالات التي ذكرها الشاطبي في الاخذ بالمباح.

اولا ينبغي ان نقرر ان ترك المباح غير مطلوب لذاته لايصح ان يحرم احد حلالا احله الله (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) «الاعراف،٣٢».

فالانتفاع بالخيرات والنعم التي خلقها الله وسخرها لنا هو الاصل (وسخر لكم مافي السموات ومافي الارض جميعا) (كلوا من طيبات مارزقناكم) «البقرة، ١٧٢» لكن الانتفاع له شروط وحدود وهي انه ينبغي ان يكون دون اسراف وتبذير (وكلوا واشربوا ولاتسرفوا) «الاعراف،٣١» فالنعم خلقت للانتفاع بها ولو كان هنالك مجتمع وفرة لما صح الزهد. السبب الذي يجوز لنا الزهد هو ايثارنا الغير للانتفاع بها وهذا يعني ان اصل الانتفاع حصل لان شخصا ما انتفع بها والدليل علي ان تركها غير مطلوب لذاته هو ان الرسول ﷺ كان يتناولها اذا وجدها، ومن ناحية اخرى فان الاخذ بالمباح يلزم منه ترك حرام ويؤجر الانسان علي ذلك، كما وان

---

(٦٣) الموافقات الجزء الاول ١١٢

المباحات كمداعبة الرجل زوجته واللعب يمكن ان يجمع فيها المؤمن بين الاجر والترويح. كذلك فان الانسان اذا اخذ بالمباح وانتفع بالخيرات التي انعم الله عليه بها وشكر الله علي ذلك نال اجرا لشكره، بالاضافة الي هذا اخذ المؤمن المباح بنية التقرب الي الله يكون عمله عبادة ينال بها اجرا ان شاء الله... ونختم حديثنا عن الزهد والاباحة بتعليق علي حجج الشاطبي وبيان انه لايلزم منها ترك المباح. فانه لايلزم من الحجة الاولي والثانية وجوب ترك المباح لان الانسان قد يأخذ بالمباحات ولكنه يقوم بالواجبات وينتهي عن المحرمات. وكذلك الحجة الرابعة لايلزم منها ترك المباح لان هناك امورا مباحة لاشبهة في انها مباحة اما الحجة الاولي فهي الحجة الاكثر اشكالا اذ انها تقول ترك المباح ليس واجبا ولكنه مستحب وافضل «اي افضل للمؤمن» ان يترك المباحات ويشتغل بفضائل الاعمال وفعل الخيرات لان فعل المباح ليس فيه ضرر لكنه في نفس الوقت لايترتب علي فعله ثواب او منفعة الا المنفعة الدنيوية، والمؤمن والعاقل من يهتم بالمنفعة الاخروية والعمل للاستزادة منها، ويجب ان يكون قصده السعادة في الحياة الباقية اللامتناهية وليس في الحياة القصيرة الفانية والعمل لها لاتحده حدود، ان هذا الكلام في التحليل النهائي صحيح وعين الحق، لكن قد يظن انه يلزم منه الانشغال الدائم المستمر بفضائل الاعمال والخيرات من العبادة المستمرة وخدمة المسلمين المستمرة والسهر علي راحتهم وقضاء حوائجهم ومصالحهم وان الاهتمام بمتع الحياة الدنيا وصرف الجهد فيها يعد تراخيا عن فعل الخيرات.

هذا الكلام في مجمله صحيح ولكن ينبغي ان نضع في الاعتبار ان النفس البشرية كثيرا مايصيبها الملل والضعف وتحتاج الي شئ من الفسحة والراحة والترويح والمتعة الحلال لكي تستعيد قوتها ونشاطها حتي تقوي لعمل الخيرات.

العبادة والذكر

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في توضيح معني العبادة «العبادة اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الباطنة والظاهرة في الصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث واداء الامانة وبر الوالدين وصلة الارحام والوفاء بالعهود والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والاحسان للجار واليتيم والمساكين وابن السبيل والمملوك والادميين والبهائم والدعاء والذكر

والقرآن وامثال ذلك من العبادات وكذلك حب الله ورسوله وخشيته والانابة اليه واخلاص الدين والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل والرجاء لرحمته والخوف من عذابه»(٦٤) .

العبادة اذن تشمل كل عمل صالح يقصد به وجه الله من الاعمال الظاهرة والباطنة سواء كانت بالجوارح... او باللسان او بالقلب والعبادة هي التي من اجلها خلق الانسان (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) «الذاريات،٥٦» وتمثل العبادة اعترافا من الانسان بعبودية الله وتحرره عما سواه وتقتضي الخضوع والتذلل والطاعة والمحبة والتعظيم والاجلال. ويشترط في العبادة ان تكون موافقة لشرع الله وبنية التقرب الي الله اي يشترط فيها اخلاص النية يقول الله سبحانه وتعالي (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) «الشوري،٢١» (ثم جعلناك علي شريعة من الامر فاتبعها ولاتتبع اهواء الذين لايعلمون) «الجاثية،١٨» ويقول الرسول ﷺ «من احدث في امرنا هذا ماليس منه فهو رد» «رواه البخاري ومسلم» ويقول الله تعالي (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) «البينة،٥» والعبادة تقتضي طاعته والامتثال لاوامره، وطاعته تقتضي تحكيم شرعه (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله) «النساء،١٠٥» يقول تعالي: (الم تر الي الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الي الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا) «النساء،٦٠» ويقول تعالي: (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون) «المائدة،٤٤».

والطاعة تقتضي ان نوالي اولياءه ونعادي ونتبرأ من اعدائه يقول الله تعالي (يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة) «الممتحنة،١» .

فالعبادة ليست فقط الادعية والاذكار واعمال الجوارح الظاهرة ولكنها تشمل كل حركات الانسان (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) «الانعام،١٦٢» نجد بعض المتصوفة لهم مفهوم ضيق للعبادة ونجد البعض ايضا لايهتم بالالتزام بشرط موافقة العبادة ماشرع حيالها من احكام فيبتدعون في الدين مالم يأذن به الله «انظر مفهوم البدعة» بعد هذا الحديث العام عن مفهوم العبادة في الاسلام سنتحدث باختصار عن بعض القضايا التي تتصل بالذكر وفضله واسلوبه وطريقته.

---

(٦٤) ابن تيمية، العبودية ص٣٨.

للذكر فضل كبير وثواب عظيم يقول الله تعالي: (ولذكر الله اكبر) «العنكبوت،٤٥» ويقول الله تعالي: (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما) «الاحزاب،٣٥» وخير الذكر ماكان من قرآن او من دعاء مأثور عن الرسول ﷺ واي نوع من ذكر او دعاء لايدخل في هذين النوعين ليس له خاصية تميزه علي غيره اما الذكر بالعدد فمنه المأثور كالذكر والدعاء باعداد مثل الثلاثة والثلاثين والمائة وغيرها اما اذا لم يكن مأثورا فانه ليست له صفة الالزام وربما يتخذه الفرد لانه منشط او انه يساعد علي المواظبة ولكن لا اري ان هنالك برهانا في انه يحمل خاصية خاصة [٦٥]. «انظر حديثنا عن البدعة» اما الورد الذي هو تجميع لدعاء مأثور من كتاب او سنة او غيره فحسن ولا غبار عليه ولكن ليس لورد معين صفة الالزام ومن الزم نفسه بورد معين فمستحب ان يداوم عليه فقد كان احب الدين الي رسول الله ﷺ ما داوم صاحبه عليه «متفق عليه». واختلفوا في الورد فذكر بعضهم فوائد الالتزام به اهمها المواظبة وذكر بعضهم له مثالب منها ان تكراره كل مرة ربما يكون سببا للغفلة وعدم التدبر والقراءة قراءة مكنيكية ويقولون بالتنويع تكون المعاني حية في نفس المؤمن [٦٦].

اما عن فضيلة الجهر والاخفاء بالذكر فهي تختلف باختلاف الاحوال والاشخاص فقد قيل ان الاخفاء للذكر افضل من خاف الرياء او تأذى به المصلون او كانوا نياما والجهر افضل في غير ذلك لانه منشط يساعد في الانتباه واليقظة ولكن الجهر الزائد وارتفاع الصوت ارتفاعا شديدا ليس بالمستحسن وينبغي ان يكون الجهر معتدلا [٦٧] من ناحية اخري فان الدين نهي عن التشدد في العبادة ولقد وردت في ذلك احاديث كثيرة. قال رسول الله ﷺ «ان الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة» «رواه البخاري» دخل النبي ﷺ المسجد فاذا حبل ممدود بين الساريتين «العمودين» فقال ماهذا الحبل؟ قالوا هذا حبل لزينب فاذا فترت تعلقت به فقال النبي ﷺ «حلوه ليصل احدكم نشاطه فاذا فتر فليرقد» «متفق عليه»

---

(٦٥) قضايا التصوف الاسلامي ص٥٠.

(٦٦) قضايا التصوف الاسلامي ص٥١.

(٦٧) قضايا التصوف الاسلامي ص٥٢.

شـــروط العـــزلة [٦٨]

ذكر البعض شروطا للعزلة منها:

١/ النية الصادقة بتجنب فعلها لطلب السمعة وبغرض الرياء.

٢/ ان يستأذن الشيخ لدخولها.

٣/ ان لايفتح الشيخ لدخولها.

٤/ دعاء الشيخ له ليستهلها.

٥/ ان تكون الخلوة مظلمة.

٦/ ربط قلبه بالشيخ ودوام تخيل صورته.

٧/ ان لايشغل نفسه بحب ظهور الكرامات علي يديه.

العـــزلة والصحبة «الاختـــلاط»:

نتحدث عن ادلة العزلة الشرعية وانواعها ومنافعها ومضارها واسلوبها وآدابها وهل افضل العزلة ام الاختلاط.

ادلتها الشرعية:

لقد وردت احاديث كثيرة في فضل العزلة «عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل اي الناس افضل يارسول الله قال: رجل معتزل في شعب من الشعب يعبد ربه» وفي رواية «يتقي الله ويدع الناس من شره» «متفق عليه» وعنه ان رسول الله ﷺ قال «يوشك ان يكون خير مال المؤمن من غنم يتبع شعب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» «رواه البخاري».

(٦٨) حسن الفاتح قريب الله، المنهج الصوفي ص ٧٧ – ٨٤.

انواعهـــا:

العزلة اما ان تكون عزلة جسدية بأن يختلي الانسان بنفسه في مكان خال ليس فيه احد وتسمي هذه العزلة ايضا العزلة الظاهرة واما ان تكون العزلة عزلة شعورية وتسمي ايضا بالعزلة الباطنية او الخلوة في الجلوة فيكون الفرد مع الناس يتعامل معهم ويحضر جماعاتهم ومجالسهم ويشاركهم افراحهم واتراحهم ويتعاون معهم ولكنه يظل في كل ذلك ذاكرا له لاينساه لحظة ملتزما بشرعه منكرا لكل باطل (٦٩)

منافـــع ومحاســـن العـــزلة:

تتيح العزلة للمؤمن ان يخلو بربه ويناجيه ويتأمل في كونه ومخلوقاته، وتمنحه الفرصة لاكتساب العلم والاستزادة منه، وكذلك تتيح للمؤمن ان يختلي بنفسه ويحاسبها، وكل ضرر للاختلاط يمكن ان يعتبر سببا للعزلة فالاختلاط يؤدي للمشاركة في المعاصي بحضور مجالس الفسوق مثل مجالس الخمر والغناء والنساء او حضور مجالس النميمة وغيرها من المعاصي وقد يؤدي للتأثر بما هو خطأ والمجاراة فيه والتراخي عن فعل الواجب مثل اداء الصلاة في وقتها ويكون الاختلاط سببا للفتنة وسببا لضياع الوقت وفي عدم الاختلاط بعد عن الفتنة والخصومات وقد يجد الفرد في الاختلاط اذي بقبيح الحديث وبسيئ المعاملة ويتعرض الفرد بالاختلاط لمطالب الناس التي ان استجاب لها ارهقته وان لم يستجب لها رموه بالتقصير وقلة الاحسان واخيرا فبالعزلة يتقي الناس شرٌ من اعتزلهم.

مضـــار العـــزلة:

قد تؤدي العزلة الي مخاطر كأن تصيب الفرد منها اضرار نفسية وتؤدي به الي الهلوسة والخيالات الفاسدة وقد تؤدي به الي ترك الجماعات واداء فريضة الجمعة مثلا وتفوت العزلة علي المؤمن خيرات مثل التعليم والامر بالمعروف والنهي عن

---

(٦٩) حسن قريب الله الفاتح، المنهج الصوفي.

المنكر وغيرها من الخيرات وفضائل الاعمال التي تنجم من الاختلاط وحضور الجماعات.

قال النووي «ان الاختلاط بالناس افضل وانه يكون بحصول جمع المسلمين وجماعاتهم وبحضور مشاهد الخير ومجالس الذكر معهم وعيادة مريضهم وحضور جنائزهم ومواساة محتاجهم وارشاد جاهلهم وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر علي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقمع نفسه عن الايذاء وصبر علي الاذي (٧٠)

ثم يقول الامام النووي: اعلم ان الاختلاط بالناس علي الوجه الذي ذكرته كان عليه الرسول ﷺ وكذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم علماء المسلمين وخيارهم. وهو مذهب اكثر التابعين من بعدهم وبه قال الشافعي واحمد واكثر الفقهاء رضي الله عنهم قال تعالي: (وتعاونوا علي البر والتقوى) بالاضافة لما ذكر النووي فقد كان الصحابة يلبون الدعوة ويقضون بين الناس في منازعاتهم ويجاهدون الكفار ويمدون مايستطيعون لهم من قوة ويسعون للرزق ويسعون لقضاء حاجات الناس ويتعلمون ويعملون ويدبرون أمر الرعية (٧١).

وخلاصة الامر ان الاختلاط اذا امن الانسان علي نفسه الفتنة وصبر علي الاذي افضل ففيه فرصة لفعل الخيرات وتعاون علي البر والتقوى وفي مخالطة الصالحين نفع كبير من زيادة علم وتذكير لعمل الخير ومؤازرة فيه وشحذ للهمة له. بجانب هذا فليكن للمؤمن اوقات للعزلة يراجع فيها امره – ويحاسب فيها نفسه ويستزيد فيها من علم ويجد فيها ساعة للعبادة والذكر.

---

(٧٠) الامام النووي، الصالحين ص٢٢٢

(٧١) عبد الله حسن زروق، قضايا التصوف الاسلامي ص٤١.

الحـــال والمقـــام:

سمي الحال حالا لتحويله وتغيره وسمي المقام مقاما لثبوته واستقراره وهنالك فرق اخر تذكره كتب التصوف بين الحال والمقام هو ان المقام مكتسب من جهد العبد بعمله واجتهاده ويكون باختياره وتعمده ولكن الحال صفة يهبها الله من يشاء من عباده فهي لاتكتسب ولايدخل فيها اختيار وعمل.

ان المقامات والاحوال تعتبر مراحل ودرجات يمر بها السالك لطريق الله يترقي من خلالها الي اشرف المنازل وانبلها وفيها تحدث له تجارب ومكاشفات حتي انه ليظن انه اتحد بالله او ان ذات الله حلت فيه وهو خطأ صريح .

ويبدأ هذا الطريق بترك الغفلة وتدبر الحال ومحاسبة النفس ثم التوبه مما اقترف من ذنوب وآثام ثم يتدرج في الاعتقاد والايمان والعمل حتي يصل الي درجة الاحسان وحق اليقين .

التوبة

● شروط التوبة :

١/ الندم علي ما اقترفه من اثم

٢/ترك المعصية في الحال

٣ /- العزم علي عدم الرجوع لها في المستقبل

٤ / - تلافي ما حدث في الماضي بالجبر والقضاء اويفعل الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

ان الله يقبل توبة العبد وذلك يعطيه الفرصة لتغيير مسار سلوكه الي ماهو افضل يقول الله تعالي :[غافر الذنب وقابل التوب](غافر ٣) ولا تقبل التوبة عند الموت يقول تعالي : [وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتي اذا حضر احدهم الموت قاله اني تبت الان](النساء ، ١٨) .

الصبر :

وردت آيات كثيرة في فضل الصبر يقول تعالي : [انما يوفي الصابرون اجرهم

بغير حساب} (الزمر ، ١٠) ويقول تعالى : {واصبروا ان الله مع الصابرين} (الانفال ، ٤٦) ويقول تعالى : {وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم} (فصلت ، ٣٥) والصبر هو تحمل مكروه او شيء غير محبب الي النفس وقد قسمه ابن القيم (٧٢) الي انواع :

١/ صبر نفسي اختياري وهو صبر علي مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ويدخل فيه الصبر علي الاوامر والطاعات حتي يؤديها وصبر علي المنهيات حتي لايقع فيها .

٢/ صبر بدني اضطراري كالصبر علي الم الضرب والمرض والجراحات والحر والبرد وغير ذلك .

٣/ الصبر النفساني الاضطراري يدخل فيه الصبر علي المصيبة كموت قريب او حبيب.

٤/ صبر بدني اختياري كتعاطي الاعمال الشاقة علي البدن اختيارا والثبات عليها . ان علي المؤمن ان يصبر علي كل شيء علي مرضه وفقره وكل نازلة تحل به ، او تحل بعزيز او صديق له لانه يعلم «مع سعيه لزوال ما نزل به ما استطاع الي ذلك سبيلا» ان ذلك قدر الله وقضاؤه وانه لاينفع العاقل في ساعات الابتلاء الا الصبر وانه لا جدوي للجزع والتبرم وعدم الرضا لان هذا يزيد الانسان هما وغما علي ما هو عليه ومما يساعد علي الصبر والامل فالله يحدث المعجزات ويعلم انه في حالة وقوع المصيبة اذا احتسب الامر لله ينال اجرا وعوضا كبيرا مما يجلب الرضي ويبعث علي تحمل المصيبة والمكروه، وهذا لايعني انه لايجب زوال المحنة وانه لايسعي لزوالها . ولكن الهلع والجزع والقلق والاضطراب صفات رديئة، علي المؤمن ان يتجنبها .

التوكل :

لقد امر الله تعالي بالتوكل وبين فضله واثني علي المتوكلين : قال تعالى {وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين} (المائدة ، ١٣) وقال تعالي :{ ومن يتوكل على الله فهو حسبه }(الطلاق ٣٠) وقال تعالي : {ان الله يحب المتوكلين} (ال عمران ١٥٩،)

---

(٧٢) ابن القيم ، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، ص ٢٤ .

يري بعض المتصوفة ان التوكل يعني ترك الاخذ بالاسباب والسعي وأن ذلك من كمال التوحيد والايمان ، ولكن اهل التصوف الصحيح يرون ان التوكل لايتعارض مع السعي والاخذ بالاسباب . المتوكل هو الذي يأخذ بالاسباب ولكنه لايعتقد انها موصلة بنفسها للغايات والاغراض فالاسباب لاتحقق غاية دون ارادة الله وعونه .

والتوكل حالة نفسية يعلم فيها المؤمن انه ليس وراء قدرة الله قدرة ولا وراء عنايته عناية ولا وراء رحمته رحمة فبعلمه ذلك يتكل قلبه عليه وحده ولايلتفت الي غيره ولا الي نفسه ولايلتفت الي قوته وحوله فانه لا حول ولا قوة الا بالله.

ان المؤمن يعلم مع سعيه ان الامر كله لله وليس له هو في حقيقة الامر شيء والمتوكل لايكون قلقا ولامنزعجا في سعيه لايجاد الاسباب التي بها تتم الغايات وانه لايأخذ الاسباب التي تكون محرمة او تكون فيها شبهة .

ولقد ذكر الغزالي (٧٣) ان المتوكلين درجات:

متوكل ثقته بالله كثقة الموكل بوكيله

ومتوكل حاله مع الله كحال الطفل مع امه لايعتمد الا عليها ولايفزع الا لسواها ومتوكل يكون بين يدي الله في حركاته مثل الميت بين يدي الغاسل.

ان ترك السعي مطلقا بدعوي التوكل علي الله امر غير مقبول شرعا ولا عقلا فاننا لم نر احدا من المتصوفة في الواقع ترك الاخذ بالاسباب مطلقا فقد ذكر الغزالي ان البعض قد ترك العمل بدعوي التوكل لان الله يرزقه ولكن هذا الشخص اذا كان صادقا فان عليه اذا احضر له الطعام ينبغي ان لايمد يده لتناول الطعام وان يتركه بدعوي التوكل وعدم السعي بدعوي الانشغال بالعبادة امر مخالف للسنة الشريفة فقد قال رسول ﷺ «اليد العليا خير من اليد السفلي» (رواه البخاري - بابي الوصايا) وقال | للاعرابي «اعقلها وتوكل علي الله » (رواه الترمزي) . وهناك قصة حدثت لابراهيم بن ادهم مع شقيق فيها دلالة علي فضل السعي . قال ابراهيم لشقيق : كيف بدأ امرك الذي ابلغك هذا «يعني التصوف» قال شقيق : مررت ببعض الفلوات فرأيت طائرا مكسور الجناحين في فلاة من الارض فقلت انظر كيف يرزق هذا ، فقعدت بحذائه ، فاذا بطائر اقبل في منقاره جرادة وضعها في منقار الطائر مكسور الجناحين قلت في نفسي ان الذي سخر هذا الطائر الصحيح لهذا الطائر المكسور الجناحين لقادر ان يرزقني حيث كنت فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة فقال ابراهيم : ياشقيق لم لاتكون انت الطائر الصحيح الذي اطعم العليل حيث تكون افضل منه ، اما سمعت النبي صلي الله عليه وسلم انه لما

(٧٣) الغزالي ، احياء علوم الدين الجزء الرابع ص ٣٦١ .

سئل عمن يعول العابد قالوا فلانا فقال : فلان خير منه .

ان بعض القائلين بترك السعي والانشغال بالعبادة يفهمون معني العبادة فهما ضيقا «الذكر والصوم والصلاة .. » ولكن كما اسلفنا الذكر يمكن ان تشمل العبادة كل حركة للانسان . فقد عرفها ابن تيمية بأنها «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الافعال والاعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث واداء الامانة وبر الوالدين وصلة الارحام والوفاء بالعهود والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين ، والاحسان للجار واليتيم والمسلمين وابن السبيل والملوك والادميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة وامثال ذلك من العبادات وكذلك حب الله ورسوله وخشيته والانابة اليه واخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل والرجاء لرحمته والخوف من عذابه» (٧٤).

ان المجتمع المسلم لايمكن ان يعيش افراده دون سعي للرزق وبدون قوة تحميه الا ان نفترض ان بعضه يقوم باعداد القوة وبتوفير الحاجيات والضروريات الاقتصادية . ان الاعداد للقوة امر اوجبه الدين علي الجماعة المسلمة :[واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم](الانفال ، ٦٠) اذا كان لابد ان تسعي مجموعة من المجتمع لكي يبقي المجتمع فان البرنامج الصوفي سيفشل اذا طبقه كل الناس.

المحبة :

المحبة هي الرغبة في شيء معين والتطلع اليه ووجود لذة عند الظفر به وحال المحبة ان يكون الانسان في حالة توتر وشوق لايرتاح له بال ولاتهدأ له نفس حتي يجد ما يحب .

ذكر ابن القيم اقوالا فيها معان تلزم من مفهوم المحبة تلقي الضوء علي معناها فقال : يلزم من المحبة ايثار المحبوب علي جميع المصحوب ، وقال : يلزم منها الموافقة لمرادات المحبوب واوامره ومرضاته ، وقال : ان من موجباتها ان المحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقله واستحي منه ، ولو نال من محبوبه ايسر شيء لاستكثره واستعظمه ، وكذلك من لوازم المحبة ان تمحو من القلب ما سوي المحبوب ، واضاف ان من لوازمها الا يؤثر علي المحبوب غيره وان

---

(٧٤) ابن تيمية ، العبودية ص ٣٨ .

لايتولي اموره غيره ومنها الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته والحرية من الاسترقاق لما سواه.

والانسان قد يحب ويرغب في اشياء مختلفة وقد يتركز حبه في شيء واحد حتي لا يبتغي غيره ولقد حاولت في كتابي : «قضايا التصوف الاسلامي » (٧٥) ان اعطي قائمة طويلة للاشياء التي يمكن ان يحبها الانسان انكر منها : محبة الانسان للمال والثروه والنكاح والطعام والشراب والمجد والشهوة والمكانة الاجتماعية والانتصار في المنافسات الرياضية والحروب وفي المناظرات والسياسة وحبه للعلم والجمال والفن والموسيقي والغناء والرقص والخمر وحبه للعبادة وحبه لابنائه ووالديه واخوانه وزوجته واقاربه واصدقائه وحبه لاخوانه في الدين وحبه للاتقياء والصالحين والاولياء وارباب المذاهب والعلماء واتباع المذاهب وحبه للرسول صلي الله عليه وسلم وصحبه وحبه لله سبحانه وتعالي .

ان المفاضلة بين هذه الاشياء وتحديد ايها جدير بالمحبة يعتمد كما ذكر الغزالي علي خصائص الشيء المحبوب فقال : ان الشيء يحسن اذا اتصف بخصائص معينة وان كل شيء حسن له خصائص تخصه وتجعله حسنا وهذه الخصائص تمثل كماله اللائق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولايحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الاواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الاشياء وقال ان لذة العلم بالنحو والشعر ليست كلذة العلم بالله وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر المعلوم وقال ان اهم المعارف واشرفها معرفة اشرف واجمل واكمل واعظم موجود وليس هنالك اشرف من خالق الاشياء وهو الله ويري ان هنالك اشياء بطبيعتها تعطي لذة اكبر واقوي ، وقال : ان تفضيل لذة علي اخري ينبني علي اسس من التجربة ومن ذاق عرف ان معياري التفضيل ـ معيار الخصائص الموضوعية ، ومعيار التجربة الذاتية ـ قد يتعارضان فينبغي الاشارة الي ما يمكن به ازالة التعارض المحتمل . والموضوع يحتاج الي تحليل ونقاش اوسع يجده القاريء في كتاب للاخلاق نأمل ان ننشره قريبا فاي الاشياء اجدر بالمحبة من غيرها واي الاشياء مسموح لنا ان نحبها وايهما ينبغي ان نفضل اذا تعارض بعضها مع بعضها الآخر .

المطلوب في الدين حب الله ورسوله وآل بيته وحب الاتقياء والاولياء

---

(٧٥) عبدالله حسن زروق ، قضايا التصوف الاسلامي ص ١٠٩ ـ ١١٢ .

والصالحين واخوة الدين والحب المستحسن حب العبادة والذكر وحب «الخير والعمل الصالح» وحب ما وعد الله من النعيم المقيم . ولايلزم من حب الله ورسوله او كليها الزهد فيمن سواهما ولكن يلزم ان يكون احب الاشياء الي المؤمن الله ورسوله ثم اخوة الدين ثم ياتي حبه للحلال من متاع الدنيا ، ولكن اذا خير بين محبة الله ورسوله ونيل رضا الله وبين متاع الدنيا فينبغي ان يختار محبة الله ورسوله يقول الله تعالي {قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتي ياتي الله بامره والله لايهدي القوم الفاسقين } (التوبة ،٢٤) ويقول الرسول : لايؤمن احدكم حتي اكون احب اليه من اهله وماله والناس اجمعين » (رواه البخاري ومسلم).

ولقد ظهرت مؤخرا في المجتمع المسلم : انواع من المحبة مثل الحب الالهي ، ولقد عرفت رابعة العدوية واشتهرت بحبها الالهي ورويت عنها ابيات شعرية في ذلك هي قولها :

احبك حبين حب الهوى	وحب لانك اهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى	فذكر شغلت به عمن سواك
وأما الذي انت اهل له	فكشفك للحجب حتي اراك
فما الحمد في ذا وذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاك

ولكن رابعة قالت ان حب الله شغلها عن حب من سواه وبذلك تضمن حبها لله معاني مستحدثه وغريبة عن المفهوم المتفق عليه في الاسلام فقد روي عنها انها قالت : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم في المنام فقال لي : هل تحبينني يارابعة ؟ فقلت يارسول الله ومن يكون الذي لايحبك ؟ بيد ان محبة الحق استولت عليّ بحيث لم يبق لي لحب غيره مكان في قلبي .

انه لامر طبيعي ان يكون حب المؤمن لله اقوي واعظم حب بالمقارنة لحبه لغيره لما يتصف به من صفات الكمال والجلال والجمال والعظمة والقوة والعدل والرحمة وغيرها من الصفات ولكن هذا لايعني ان لانحب غيره اي ان لانحب رسوله او المؤمنين اما اذا كان حال رابعة حالا غلب عليها وليس بارادتها فلا جناح عليها وامرها الي الله «والله اعلم ».

نود اخيرا ان نشير الي حب الرسول ﷺ عند بعضهم والذي قد يعبرون عنه في مدائحهم النبوية فانه يتصف في بعض الاحيان بالغلو والتطرف قال رسول الله

صلي الله عليه وسلم : «لايستهوينكم الشيطان فتطروني كما اطرت النصاري عيسي بن مريم وانا عبدالله ورسوله » (٧٦) وكذلك تطرف وغالي من احب الرسول صلي الله عليه وسلم ولم يحب غيره «والله اعلم » لقد جمع الاسلام بين حب الله ورسوله والمؤمنون وقد قال الرسول ﷺ : ثلاثه من كن فيه وجد حلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وان يحب المرء لايحبه الا الله وان يكره ان يعود للكفر كما يكره ان يقذف في النار . (٧٧).

الرضا :

وردت اقوال كثيرة في وصف حالة الرضا فقال بعضهم : الرضا استقبال الاحكام بالفرح وقال البعض : انه ترك التسخط ، وقال ذو النون : ثلاثه من اعلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء وهيجان الحب في حشو البلاء . وقيل انه ارتفاع الجزع في اي حكم كان ، وقيل الرضا ثلاثه اقسام : رضا العوام وهو رضا بما قسمه الله واعطاه ، ورضا الخواص وهو رضا بما قدره وقضاه ، ورضا خواص الخواص وهو رضا به بدلا من كل ما سواه .

اذن الرضا رضا بكل ما قضي الله وقدر وهو قبول حكم الله او امره او نهيه او قدره فالرضا بأمر الله ونهيه يدل عليه قوله تعالي : {وما كان لمؤمن ولا مؤمنه اذا قضي الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم }(الاحزاب ،٣٦) انهم لايؤمنون حتي يحكموا الرسول صلي الله عليه وسلم وحتي يرتفع الحرج من حكمهم وحتي يسلموا لحكمه تسليما وهذه حقيقة الرضا بحكمه فالتحكيم في مقام الاسلام وانتفاء الحرج في مقام الايمان والتسليم في مقام الاحسان ، والرضا بالقدر كالمصائب التي يبتلي بها عباده . وفي الاثار الالهية «من لم يرض بقضائي ولم يصبر علي بلائي فليتخذ ربا سواي» . ولكن الانسان لايرضي بالذنوب والاثام فانه لم يقم دليل من الكتاب او السنة او الاجماع علي جواز الرضا في كل قضاء فضلا عن وجوبه واستحبابه فاين امر الله عباده او رسوله ان يرضوا بكل ما قضاه وقدره(٧٨).

---

(٧٦) رواه ابوداؤد وروي ايضا البخار في الصحيح والترمزي في الشمائل واحمد والدارمي : ولا تطروني كما اطرت النصاري ابن مريم وانما انا عبدالله ورسوله .

(٧٧) رواه البخاري باب حلاوة الايمان .

مدارج السالكين - ابن القيم ص ١٩٨.

ينبغي ان نرضى بقضاء الله الذي خلقه وامرنا ان نرضى به ولا نرضى بما نهانا ان نرضى به والامر يرجع الي الفرق بين القضاء الكوني «الخلق» والقضاء التشريعي «الامر والنهي» ومصداقية هذا التفريق ويرجع الي مصداقية القول ان الله يريد امرا لايرضاه ولايحبه «وقيل في تفسير ذلك انه سبحانه وتعالي يكره شيئا ويبغضه في ذاته ولاينافي ذلك ارادته لغيره ولكونه سببا الي ما هو احب اليه ».

مفارقة الرضا:

ذكر ابن القيم انه اشكل علي بعض الناس الرضا بالمكروه وطعنوا فيه وقالوا هذا ممتنع علي الطبيعة وانما هو الصبر والا كيف يجتمع الرضا والكراهية وهما ضدان ؟ معني هذا اذا كان الرضا رضا بمكروه والمكروه لا يرضي به فيكون الراضي غير راض؟ وحل هذه المفارقة التي اشار اليها ابن القيم هو اننا نرضي بمكروه من اجل محبوب فهو ليس رضا بمكروه مطلقا.

فالمؤمن يرضي بالمصيبة لانه يتبعها ثواب عظيم لكنه يرضي بها اذا ما وقعت ولا يمكن زوالها كفقدان حبيب ولكنها اذا وقعت ولكن متصور زوالها فانه برغم ما فيها من اجر فقد يتمني زوالها ويتمني ان ينال الاجر والثواب في غيرها .

الخوف: -

مدح القرآن الذين يخافون ويخشون ربهم وذكر فضلهم ، قال تعالي :{ ومن يطع الله ورسوله ويخشي الله ويتقه فاولئك هم الفائزون }(النور،٥٢) والذين يخافون الله هم الذين يستجيبون لهذا الدين قال تعالي :{انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلاة }(فاطر،١٨) وربط القرآن بين العلم والخوف فقال تعالي : {انما يخشي الله من عباده العلماء }(فاطر ، ٢٨).

والخوف انواع : خوف من الامور التي تحدث في الدنيا وليس الحديث عن ذلك ولكن الحديث عن الخوف من المصير في الاخرة وهو الخوف من عذاب النار . والحرمان من نعيم الجنة ودار النعيم والملك المقيم . والخوف من نقصان الدرجات . والخوف من الحجاب اي المنع من رؤية الله سبحانه وتعالى ولذة النظر اليه ولقد كان خوف رابعة العدوية من هذا القبيل وقد روي عنها انها قالت انها لم تعبد الله

خوفا من ناره ولا طمعا في جنته ولكن حبا وطمعا في رؤيته ، ان الخوف والحرمان من نعيم الجنة امر وارد وتجربة يمر بها كل من مارس الحياة والعمل والفكر ، وحالة رابعة هذه حالة في اعتقادي شاذه فالانسان قد يخاف من انه قد لايكون قام بتمام حقوق الله واداء ما عليه من واجب بالكمال او يخاف ان يحدث له ذلك في المستقبل وقد يخاف من سوء الخاتمة وقد يخاف من عدم قبول عمله ، فحالة رابعة هذه قد تكون من الاحوال الغريبة التي تحدث للمتصوفة مثل حالة السكر والغيبة . والقرآن يصف المؤمنين بانهم يدعون ربهم خوفا وطمعا . ويقول تعالي : {والذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة انهم الي ربهم راجعون }(المؤمنون ،٦٠) .

الرجاء :

وردت آيات كثيرة في معني وفضل الرجاء منها قوله تعالى : {ان الذي آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم} (البقرة ، ٢١٨) وقوله تعالى : {اولئك الذين يدعون يبتغون الي ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا }(الاسراء ،٥٧) وقول تعالى : {ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور } (فاطر،٢٩).

قال الغزالي : «الرجاء مقام من مقامات السالكين . وعرفه بانه توقع وانتظار حدوث شيء محبوب في المستقبل ، بالاضافة الي ارتياح القلب عند تخيل الشخص حدوث ذلك الشيء المتوقع . وهذا الشيء المتوقع يجب ان يكون محتمل الحدوث لوجود الاسباب التي تؤدي الي حدوثه فاذا كان غير محتمل الحدوث لانعدام الاسباب المؤدية الي حدوثه فلا يسمي توقع حدوثه رجاء بل يكون حمقا»[٧٩]، واذا كان الشيء المتوقع لايعلم وجود اسبابه او عدمها يكون توقعه تمنيا وكذلك لايصح ان يطلق اسم الرجاء علي شيء مقطوع ومتيقن من حدوثه كطلوع الشمس ، ولكن يصح ان يقال ارجو نزول المطر «في فصل الخريف»، وحاول الغزالي ان يطبق هذا المعني العام للرجاء بالنسبة للرجاء في الدين فاتي بتشبيه جميل حيث قال : ان من يرجو حصادا من غير ان يزرع الارض بالبذر ويسقي البذر بالماء وينظف الزرع

---

(٧٩) ان الانسان قد يطلب ويرجو ويدعو الله ان يخرق له العادات والقوانين والسنن ويحقق له هدفا حسب ما هو معلوم بعيد الحدوث.

من الحشائش احمق، ولكن من يفعل ذلك ثم ينتظر من الله دفع الافات المفسدة للزرع «بعض الآفات يمكن ان يحترز منها» الي ان يتم الزرع غايته ـ سمي انتظاره رجاء لذلك من اراد الحصاد في الاخره ولم يزرع لها في الدنيا كان انتظاره طمعا. العبد المجتهد في الطاعات المتجنب للمعاصي حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة قال تعالي : {ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله }(البقرة ، ٢١٨) معناه اولئك يستحقون ان يرجوا رحمة الله . اما العاصي اذا تاب وتدارك جميع ما فرط من تقصير فحقيق ان يرجو قبول التوبة . واذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق اليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لان كراهيته المعصية وحرصه علي التوبة يجري مجري السبب الذي يؤدي الي التوبة . الرجاء الصحيح هو بعد التاكد من الاسباب . فأما من ينهمك في المعاصي ولايذم نفسه ولايندم ولايعزم علي التوبة او الرجوع فرجاؤه حمق وغرور كرجاء الحاصد بدون بذر.

ايهما افضل الرجاء ام الخوف :

لقد تساءل البعض هل افضل الخوف ام الرجاء؟قال الغزالي في الرد علي هذا التساؤل : الخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب ، فضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب علي القلب داء الامن من مكر الله والاغترار فالخوف افضل وان كان الغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء افضل وقال الغزالي (٨٠): «ان الخوف افضل لاكثر الخلق لغلبة المعاصي عليهم . والحق عندي ان كل مؤمن ينبغي ان يكون حاله بين الخوف والرجاء وهذا حال المؤمنين كما وصفهم القرآن { يدعون ربهم خوفا وطمعا }(السجدة ، ١٦) ولايهمل الانسان درجة ينتفي عنده الخوف .روي ان عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يا بني خف الله خوفا ترى انك لو اتيته بحسنات اهل الارض لم يقبلها منك وارجه رجاء ترى انك لو اتيته بسيئات اهل الارض غفرها لك . ان المؤمنين في حال دائم من الخوف والرجاء . وقال عمر رضي الله عنه : لو نودي ليدخل النار كل الناس الا رجل واحد لرجوت ان اكون ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس الا رجل واحد لخشيت أن اكون ذلك الرجل.

---

(٨٠) الغزالي ، احياء علوم الدين الجزء الرابع ص ١٤٣.

الفرق بين نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود :

الحلول يعني وجود شيء داخل شيء آخر دون ان يفقد احدهما طبيعته او هويته او ماهيته او ذاتيته فتحل الذات الالهية في الذات الانسانية فيحل على حد تعبيرهم اللاهوت في الناسوت . اما الاتحاد فيعني ان تكون الذاتان اكثر تداخلا وقربا وقد يفقد الشيء في هذه الحالة ذاته او بعض خصائصها وصفاتها . اما وحدة الوجود فتعني ان الاشياء كلها في الاصل شيء واحد ولكن هذا الشيء قد يظهر بمظاهر متعددة فيظهر الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا - في صورة انسان او حيوان او نبات او جماد .

الفناء :

لقد تقدم الحديث عن الفناء عندما تعرضنا لاتجاهات التصوف والفناء عادة ما يقسم الى فناء الوجود وفناء الشهود وفناء الارادة «راجع كتابنا قضايا التصوف الاسلامي » وكتاب العبودية لابي تيمية.

نظرية الحلول:

قال البغدادي (٨١) انه قد حكي انه قال: من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات وارتقي الى مقام المقربين لايزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتي يصفو عن البشرية فاذا لم يبق من البشرية حظ حل فيه روح الاله الذي حل في عيسي بن مريم «وذكر البغدادي (٨٢) ايضا انهم ظفروا بكتاب له عنوان » من الهو الذي هو رب الارباب المتصور في كل صورة الي عبده فلان «واورد ايضا انه ظفر في كتاب لاتباعه فيه » يا ذات الذات ومنتهي غاية الشهوات نشهد انك المتصور في كل زمان بصورة وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ونحن نستجيرك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب.

---

(٨١) الفرق بين الفرق ص ٢٦٣.

(٨٢) المصدر نفسه.

لاشك ان هذه الاراء والمعتقدات تعارض العقيدة الاسلامية وهي تشبه عقيدة النصاري في المسيح عليه السلام.

ولقد ذكر الطوسي (٨٣) نقدا لفكرة الحلول « ان جماعة من الحلولية زعموا ان الحق تعالي اصطفي اجساما حل فيها بمعاني الربوبية وازال عنها معاني البشرية فان صح عن احد انه قال هذه المقالة وظن ان التوحيد ابدي له صفحته بما اشار اليه فقد غلط وذهب عليه ان الشيء مجانس للشيء الذي حل فيه والله تعالي بائن عن الاشياء والاشياء بائنة عنه بصفاتها والذي اظهر في الاشياء فذلك آثار صنعته ودليل ربوبيته لان المصنوع يدل علي صانعه والمؤلف يدل علي مؤلفه وانما ضلت الحلولية ، ان صح عنهم ذلك ، لانهم لم يميزوا بين القدرة التي تدل علي قدرة القادر وصنعة الصانع ، ولم يميزوا بين الشواهد وما تدل عليه ، وبين شاهد الايمان في القلب وحلول الله في القلب.

الاتحاد :

ذكرنا انه في حالة الاتحاد «اتحاد الانسان بالله» قد يفقد الشيء ذاتيته او بعض اوصافها او خصائصها وفيه تكون الذاتان اكثر تداخلا واكثر قربا وقد قال بنظرية الاتحاد هذا البسطامي «فقد شاع في كلام الناس انه قال : رفعني الله مرة فاقامني بين يديه وقال لي يا ابا يزيد ان خلقي يحبون ان يروك فقلت : زيني بوحدانيتك والبسني انانيتك وارفعني الي احديتك حتي اذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون انت ذاك ولا اكون انا هنا ، علق الدكتور عبدالقادر محمود(٨٤) علي هذه العبارات فقال : انها دعوة واضحة الي الاتحاد بالله حتي يبلغ المتحابان حقيقة المحبة في الاتحاد ، فيقول الواحد للاخر يا انا وقال الدكتور عبدالقادر محمود (٨٥): والبسطامي وان لم يصرح هنا بانه اتحد فعلا مع الله فقد صرح بذلك في كثير من اقواله التي ذكر منها : وفي «قولي انا الحق انكار لتوحيد الحق » وقال الدكتور : فان هدف الشوق العارم ان يصير المحب والمحبوب شيئا واحدا في الجوهر او

---

(٨٣) الطوسي ، اللمع ص ٤٢٦ .

(٨٤) عبدالقادر محمود ، الفلسفة الصوفية في الاسلام : ٣١٤.

(٨٥) المصدر نفسه .

الفعل . اي في الطبيعة والمشيئة والفعل الصادر منها فتكون الاشارة الي الواحد عين الاشارة الي الاخر ثم تختفي الاشارة لانعدام المشير فلا يصير غير واحد احد هو الكل في الكل .

ان مفهوم الاتحاد يتصل بمفهوم الفناء فان اقصي حالات الاتحاد هي فناء ذات الانسان في ذات الله وفي هذه الحالة تنعدم صفات الفاني ولاتوجد الا صفات الموجود الذي فني فيه . ان ظاهرة الاتحاد هذه في الحقيقة تجربة يمر بها كثير من المتصوفة ويشعر الواحد منهم بحال الفناء وشعور الاتحاد بالله وهو في حالة غيبة او سكر ولكنه اذا ارتقي في السلم الصوفي زالت عنه هذه الحالة وعاد اليه تميزه ووعيه وصار يميز بين نفسه «المخلوق» وبين غيره «الخالق».

ولاشك ان عبارات البسطامي التي اوردناها عبارات شاطحة ينبغي ان نحكم عليها علي هذا الاساس «يمكن الرجوع الي المعايير التي وضعناها للحكم علي النص الصوفي »، وقد قال ابن تيمية في نقضه لهذه النظرية : «فان الخالق لايتحد به شيء اصلا بل لايمكن ان يتحد شيء بشيء الا اذا اتحد الماء باللبن » (٨٦) وهذا مستحيل علي الخالق . اما الشعور بالاتحاد في حالة الغيبة فلا يؤسس عليه حكم لان صاحبه اذا ميز عرف انه غالط.

وحدة الوجود:

تقول هذه النظرية في مدلولها البسيط ان كل الموجودات التي في الكون هي رغم كثرتها وتعددها في الحقيقة شيء واحد وهذا الشيء هو الله سبحانه وتعالي - تعالي عن ذلك علوا كبيرا . فالله يظهر ويتجلي في صور متعددة . وقد حاول ابن عربي ان يعطي حججا تسند هذه النظرية وتمسك بكل لوازمها المنطقية فقال : ألا تري ان الحق يظهر بصفات المحدثات واخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص وبصفات الذم تعالي عن ذلك علوا كبيرا - الا تري ان المخلوق يظهر بصفات الحق من اولها الي آخرها . وقال بتنزيه الذات الالهية وبتشبيهها في نفس الوقت وعبر عن ذلك في ابيات شعرية :

فـــان قلت بالتنزيه كنت مقيدا	وان قلت بالتشبيه كنت محددا
وان قلت بالامرين كنت مسددا	وكنت امـــام العارفين مسيدا

واستدل علي التنزيه بقوله تعالي {ليس كمثله شيء } وبالتشبيه بقوله تعالي : {

(٨٦) العبودية : ابن تيمية ص ١٤٧ .

وهو السميع العليم] .

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا   وليس خلقا بذاك الوجه فاذكروا

وان القول بالتنزيه والتشبيه في نفس الوقت قد يعد تناقضا ولكن الامر يحتاج في تقييمه لنقاش مسألة الصفات والاسماء والي ايضاح كيف ان اللغة التي تعبر عن الكائنات في عالم الشهادة هي نفسها التي يعبر بواسطتها عن الموجودات في عالم الغيب «سنفصل ذلك في بحث بعنوان اسس العقيدة الاسلامية ». وقال ان الخالق والمخلوق شيء واحد . وعبر عن ذلك في الابيات التالية :

فانت عبد وانت رب   لمن له فيه انت عبد

وانت رب وانت عبد   لمن له في الخطاب عهد

وقال :

كذاك الحق اوجدني فأعلمه فأوجده   فيحمدني واحمده ويعبدني واعبده

وهذه عقيدة تخالف صراحة العقيدة الاسلامية فالله هو الخالق وبقية الموجودات مخلوقات وعابدة له اما كرها او طوعا وانه ليس كمثله شيء «قال ابن تيمية»: وكل المشايخ الذين يقتدي بهم في الدين متفقون علي ما اتفق عليه سلف الامة ومن ان الخالق سبحانه مباين للمخلوقات(٨٧)

وحدة الاديان :

ان عقيدة وحدة الاديان تنبثق من عقيدة وحدة الوجود فما دام الوجود عبارة عن تجليات لله في صور مختلفة فلا ينبغي ان يقصر العابد نفسه علي مجال واحد دون غيره ، فعليه ان يجمع بين عبادة كل الاشياء وعليه ان يدين بكل دين . اي ان يدين بالاسلام والنصرانية واليهودية والوثنية في نفس الوقت . ولقد عبر عن ذلك ابن عربي في الابيات التالية :

لقد صار قلبي قابل كل صورة   فمرعي لغزلان ودير لراهب

وبيت لاوثـــان وكعبة طـائف   والواح توراة ومصحف قرآن

ادين بدين الحب اني توجهت   ركائبه فالحب ديني وايماني

«ان رغبة الجمع بين كل الاديان في دين واحد رغبه زائفة وغير واقعية وغير

---

(٨٧) العبودية ابن تيمية ص ١٥٣

ممكنة لان هذه الاديان في شكلها الحالي تتعارض وتتنافي ». «فقد يبدو الجمع في قلب واحد كبير بين كل الاديان امر مستحسن وهو فكرة جذابة لكثير من الناس وقد تكون دوافعه نبيله وهي ازالة الصراعات الضيقة بل الدامية بين الاديان.

ان هذا الدين الذي يجمع كل الاديان ليس بالمسيحية وليس بالاسلام ، انه دين جديد قد يكون دين الحب لكل شيء وهو بلغة وحدة الوجود حب للجميل والقبيح .ان هذه الفكرة الرومانسية لاتحل قضايا الانسان ، اننا نحتاج ان نفصل هذا الدين الجديد ونجعله نظاما للفكر والحياة بكل جوانبها وهو امر لم يفعله اصحاب وحدة الاديان ولم يقولوا كيف توجد وهل الوحدة تعني دينا جديدا فاذا دخلوا في هذا الجديد واجهوا مشكلات وتعقيدات وفقدت الفكرة بريقها وجاذبيتها وستجد من يطعن فيها بشكل من الاشكال اما اذا كانت دعوة تسامح فان كل دين سيقيسها بمعاييره.

هذا لايعني ان هذه الاديان لايمكن ان توجد في ظل نظام عادل يسمح بوجودها كلها بشكل من الاشكال.

الولاية :(٨٨)

علي المؤمن ان يعتقد ان لله اولياء صالحين ولقد اخبر عن ذلك القرآن الكريم يقول الله تعالي { الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم }(يونس ، ٦٢ ـ٦٤) وقال {وما كانوا اولياءه إن اولياؤه الا المتقون}(الانفال،٣٤).

فشروط الولاية تقوي الله ، وتقوي الله تتمثل في طاعة اوامر الله واجتناب نواهيه، والتقرب اليه بالنوافل وبصالح الاعمال ويمميته . وطاعة الله لاتتم الا بالاعتصام بالكتاب والسنة ، وليس من شرط الولي ان يكون معصوما لا يغلط بل يجوز ان تشتبه عليه الامور فاذا جاز للولي ان يغلط لم يجب علي الناس الايمان بجميع ما يقوله الا ان يكون موافقا للشرع، مع انه قد تحدث لاولياء الله مخاطبات ومكاشفات. قال الشيخ ابوسلمان الداراني انه ليقع في قلبي النكته من نكت القوم فلا اقبلها الا بشاهدين : الكتاب والسنة. وقال ابوالقاسم الجنيد رحمة : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث فلا يصح له أن يتكلم في علمنا .

---

(٨٨) عبدالله حسن زروق : قضايا التصوف، ص ٢٢٨.

الشيخ والسالك والمريد(٨٩):

ان المرشد الاساسي يجب ان يكون الرسول ﷺ ومن لم يجعل الرسول ﷺ مرشدا فقد ضل . من ناحية اخري فانه جائز ان يكون للمؤمن مرشد وشيخ ملتزم بالكتاب والسنة ولعله يكون مستحسنا . والشيخ الحق هو الوارث عن الرسول صلي الله عليه وسلم الملتزم بتعاليمه (٩٠). ففائدة الشيخ انه قد يختصر الطريق للمريد ويوجهه الي امور كان عليه ان يصرف فيها جهدا ووقتا هو في امس الحاجة اليه . الشيخ الحق (لان بعض الشيوخ قد ينقصه العلم والتقوي في نفسه او انه قد يكون اكتسب المشيخة وراثيا دون مؤهل) هو الذي يأخذ التلميذ بمنهاج علم وتربية مناسبين حتي يوصله لاعلي درجات العلم والعمل الصالح . ان صفات المرشد والشيخ الحق هي العلم والتقوي والورع والمعرفة بوسائل التربية والاصلاح في مجال- علاج امراض النفوس والقلوب (٩١). لكن هنالك ظواهر غير حميدة في ممارسات الشيوخ وهي ان شخصية الشيخ قد تطغي طغيانا كاملا ومطلقا علي شخصية المريد او التلميذ وكثيرا ما تكون مهمة المريد التنفيذ والتلقي عن الشيخ دون التدبر وبدون الاقتناع فالمريد يسلم نفسه وشخصيته كليا للشيخ ويلغي عقله . فالشيخ قد يخطيء مهما كان له من علم او تقوي . والكمال لله وحده ولاعصمة لاحد الا الرسول صلي الله عليه وسلم . ان علي المريد ان ينصح شيخه اذا رأي فيه اعوجاجا يقول الله تعالي {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر }(التوبة ، ٧١) . «يجب علي الشيخ ان يساعد المريد علي تكوين شخصيته الخاصة به » والمريد قد لايعترض علي عمل او قول لشيخه لشدة ثقته ومحبته له حتي ولو كان قولا شاطحا او عملا مخالفا للشرع.

ان منهج التربية الذي يتخذه بعض الشيوخ مع اتباعهم ومريديهم قد يجعل من المريد شخصا محبا ومتعلقا بالشيخ وتكون هذه كل حصيلته لا علم ولا ذكر ولا طاعة (٩٢). ذكر ابن تيمية «ان حب المريد لشيخه يفوق حبه لله ولرسوله فانه قد

---

(٨٩) قضايا التصوف د. عبدالله حسن زروق ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٩٠) سعيد حوي : تربيتنا الروحية ص ١٥٦.

(٩١) انظر قضايا التصوف الاسلامي :عبدالله حسن زروق ص ٣٣٧، انظر لمزيد من التفصيل نفس الكتاب ص ١٤٢ ـ١٤٨.

(٩٢) تربيتنا الروحية : سعيد حوري ص ١٦٤.

يغضب له ولحرماته اذا انتهكت، اعظم ما يغضب لله ورسوله وتراه يفرح ويحن قلبه ويبهج من لواعج التعظيم والخضوع والموالاة اذا ذكرت سيرتهم ولايحصل ذلك له اذا ذكر الله ورسوله ... خلاصة القول ان الشيخ يجب ان يكون من اهل العلم والتقوي والاعمال الصالحة . ولكن للاسف بعض الشيوخ هم انفسهم جهال ويحتاجون لشيوخ .

الكرامة

تعرف الكرامة عادة بانها الامر الخارق للعادة والامر الخارق للعادة هو الامر الذي يخرق سنة كونية او قانونا طبيعيا ومثالها ان يمشي شخص علي الماء او يطير في الهواء هذا هو المعني الاساسي للكرامة . ولكن هنالك معني آخر للكرامة هو ان الحادثة لا تخرق قانونا طبيعيا ولكن يكون الحدث مصادفة غريبة غير متوقعة وقد يكون له مغزي كبير لانه قد يحقق هدفا ما كان يمكن ان يتحقق لو لم تتم هذه المصادفة . وهذا الحدث تكون له اسباب معلومة ولكن المصادفة لاتكون لها اسباب معلومة مثال ذلك ان يوشك ان يصدم قطار طفلا وفي تلك اللحظة تخرج والدته باحثه عنه وتري منظر طفلها والقطار يقرب منه وتظن ان القطار سوف يدهمه وفي تلك اللحظة يحدث اغماء لسائق القطار نتيجة نوبة قلبية (تعلم اسبابها) فيكون نتيجتها ان يتوقف القطار ملامسا جسد الطفل دون ان يوقع به اذي. وللكرامة شروط وهذه الشروط هي :-

١/ ان تكون الحادثة ممكنة الحدوث . اي الا تناقض قوانين العقل والمنطق ولكنها قد تناقض السنن والقوانين الطبيعية .

٢/ فاذا كانت الحادثة ممكنة الوجود منطقيا ليس معني هذا ان تكون قد وقعت بالفعل . ولكي تثبت وقوعها بالفعل فينبغي ان يكون هنالك دليل مستقل يدل علي هذا الوقوع . والدليل قد يكون اننا قد شاهدنا بالفعل ولم يخيل الينا ذلك ، او ان احدا روي لنا حدوثها وان هذه الرواية صحيحة وهنالك ضوابط لمعرفة صدق الراوي وان ما رآه حقا امر خارق للعادة والامر خاضع للبحث العلمي . ولان هنالك علوما ومدارس قائمة تبحث في مسائل تتصل بهذه القضية في مجال ما يسمي بالباراسيكولوجي وظواهر الادراك فوق الحسي.

لقد ذكرنا في حديثنا عن العلوم التي يحتاج اليها دارسو التصوف جملة من الادلة التي تدل علي وقوع حوادث خارقة للعادة . واشرنا الي ان عددا من كبار علماء النفس امثال ايزنك اعترفوا بحدوثها . ولقد استعمل بعض علماء النفس مناهج صارمة لاثبات هذه الظواهر هنالك مشكلات تواجه مثل هذه التجارب اذ ان نفس عملية اجراء التجربة تؤثر في نجاحها بالاضافة الي ندرة الظروف التي يمكن ان تحدث فيها كما ان هذه التجارب لكي تكون ناجحة ينبغي ان تتم في ظروف طبيعية وينبغي ان لاتنتشر نتائجها لان نشر النتائج يؤثر في نجاح اداء العملاء الذين نشرت نتائج تجاربهم .

٣/ ان تتفق مع قواعد الشرع فاذا عارضت نصا يعبر عن حقيقة دينية (مثلا عدم امكانية معرفة الحوادث التي تحدث في المستقبل ـ علي سبيل اليقين) فانها تصبح مستحيلة الحدوث كما وانها اذا عارضت قيمة من قيم الدين وتشريعاته لاتكون كرامة لان التكريم يستحيل ان يكون لمن يحدث علي يده امر قبيح يعارض قيم الشريعة . تجدر الاشارة هنا الي ان الامر الخارق للعادة اقسام : محمود في الدين ومذموم في الدين ومباح ، فان كان المباح فيه منفعة كان نعمة وان لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات لامنفعة فيها كاللعب والعبث .(٩٢).

٤/ لاتدل الكرامة علي ان الذي وقعت علي يديه افضل الناس وليست شرطا للولاية والصلاح .

---

(٩٢) الكرامة والمعجزة ، ابن تيمية ص ٤٠ (العبث يدل بلفظه علي عدم فائدة النشاط ولكن لفظ اللعب لايدل علي ذلك لان في اللعب قد تكون هنالك فائدة الترويح وغيرها من الفوائد).

العلاج الروحي

شرع الاسلام التداوي من الامراض فقد قال صلي الله عليه وسلم : «تداووا عباد الله فان الله لم يخلق داء الا وخلق له دواء الا الهرم» فهناك التداوي بالطب العادي بالادوية والعقاقير وهناك ما يسمي بالعلاج الروحي . والامراض نوعان : امراض بدنية كامراض المعدة «قد تكون لها اسباب نفسية » وامراض نفسية «قد تكون لها اسباب عضوية» وقد يصلح العلاجان لكلا النوعين من الامراض ويمكن الجمع بين العلاجين الروحي والطبي العادي : نجد بعض الاطباء العاديين يستهينون بالعلاج الروحي ويعتبرونه شعوذه ولكن في الاونة الاخيرة اعترف به عالميا وتجد بعض الذين يعالجون بالعلاج الروحي لايريدون مرضاهم ان يذهبوا الي الاطباء وكلا الفريقين مخطيء. فالجمع بين العلاجين وارد مثله مثل الجمع بين انواع مختلفة من العلاجات فيما يخص الامراض النفسية والعقلية كالجمع بين العلاج بالعقاقير والعلاج السلوكي او الاجتماعي والعلاج بالتحليل النفسي والعلاج بالادراك والعلاج الروحي . وقد يكون نوع من العلاج اكثر فعالية في معالجة مرض معين بالمقارنة بنوع آخر من العلاج وقد يكون العلاج نافعا لطور معين من المرض. وهنا يمكن ان يتعاون المتخصصون في هذه المجالات المختلفة ويكونوا فريقا علاجيا وينبغي ان يتعرف ولو بطريقة عامة كل متخصص في مجال علي المجالات الاخري».

قد يكون هناك بعض الذين يمارسون علاج المرضي بالطرق الروحيه من الكذابين والدجالين والمشعوذين فنجدهم يمارسون اساليب غير مشروعة كالسحر ولكن بالرغم من هذا فان العلاج الروحي كان من سنة الرسول صلي الله عليه وسلم فقد ثبت في صحيح البخاري في باب الرقي بالقرآن والمعوذات ان عائشه روت ان النبي صلي الله عليه وسلم كان ينفث فيّ المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما ثقل كنت انفث بهن وامسح بيد نفسه لبركتها ثم ذكر البخاري حديث ابي سعيد الخدري ان اناسا من اصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم اتوا علي حي من احياء العرب فلم يقروهم فبينما هو كذلك اذ لدغ سيد اولئك فقالوا هل معكم من دواء او راق؟ فقالوا انكم لم تقرونا ولانفعل حتي تجعلوا علينا جعلا فجعلوا لنا قطيعا من الشاه فجعل يقرأ بام القرآن ويجمع بذاقه ويتفل فبرأ فاتوا بالشاة فقالوا لانأخذ

حتي نسأل رسول الله صلي الله عليه وسلم فسألوا فضحك وقال ما ادراك انها رقية خذوها واضربوا لي بسهم ثم قال رحمه الله باب رقية النبي وذكر فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت امرني رسول الله صلي الله عليه وسلم اذ امر ان يسترقي من العين ثم قال باب رقية النبي صلي الله عليه وسلم وذكر فيه حديثه عن انس بن مالك رضي الله عنه اذ قال لثابت الا ارقيك برقية رسول الله صلي الله عليه وسلم قال بلي قال اللهم رب الناس اذهب البأس واشف انت الشافي لا شافي الا انت شفاء لايغادر سقما.

لكن قد لايلتزم الاطباء الروحانيون بمنهج الاسلام في العلاج وقد يندس وسطهم الدجالون والمشعوذون والذين لايلتزمون بآداب المهنة : ان نفس هذه الظاهرة قد توجد وسط الاطباء العاديين فان هنالك من الاطباء من لاينضبط في ممارسة مهنته بقيم الاخلاق فنجد منهم من يقبل علاج مريض ويعلم ان هنالك من هو افضل منه في علاجه ومن يغالي بغرض كسب اكثر قدر من المال من المريض وهنالك من لايتقن عمله وهنالك من يكشف اسرار مريضه ومن يحرر شهادات مرضية مزورة للاعفاء من الخدمة وغيرها من الاساليب الفاسدة في التعامل مع المريض.

مواطن القوة ومواطن الضعف في التصوف

مواطن القوة :

تمثل هذه المواطن الجوانب الايجابية في التصوف وهي التي يمتاز بها اهل التصوف الحق . وما اسماهم ابن تيمية بأهل الحقائق .

تظهر مواطن القوة للتصوف في اهتمامه بالجانب الروحي في الاسلام والحياة الذي يتمثل فيه اهتمامه بالعبادة والذكر وصفاء النفس وصحتها .

والذي يحث علي الزهد في الدنيا والاقبال علي الاخرة وبذل الجهد في العمل لها والذي يهتم في ممارسته للعبادة باخلاص النية والتوجه بالعمل لله تعالي {وهذا امر يفتقر اليه كثير من المسلمين ويحتاج الي مجاهدة للنفس عظيمة } كما وان التصوف يحث اتباعه علي محاسبة النفس ويطلب من الفرد ان يهتم في المقام الاول بعيوب نفسه قبل عيوب غيره ولما كان يهتم بما يسمي بالعبادات الباطنة كالمراقبة والمحاسبة واخلاص النية والتوكل والصبر والشكر والرضي والمحبة والخوف والرجاء سمي بعلم الباطن وعلم القلوب، ويهتم التصوف ايضا بالاخلاق بل ان بعضهم عرف التصوف بانه الاخلاق الحميدة فقالوا «ان التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء (٩٤) وقالوا «التصوف ليس رسما ولا علما ولكنه خلق » من ناحية اخري فان التصوف يحاول ان يعالج امراض النفس كالحسد والغضب والانانية والشره والنهم والكبرياء وحب العلو والسيطرة والشهرة.

وكذلك اهل التصوف لهم اهتمام بعلاج الامراض العضوية والعقلية والنفسية بالرقية وباساليب روحية استنبطوها من ما اثير عن الرسول صلي الله عليه وسلم ومن تجاريبهم في هذا المجال. بالاضافة الي ذلك فان اهل التصوف يهتمون بمساعدة الناس وقضاء حوائجهم الدنيوية بالدعاء لهم او بسعيهم لهم باتصالهم بالذين في يدهم هذه المصالح من الحكام او الموظفين او التجار او غيرهم ولكن هذا الجانب في بعض الاحيان تكتنفه سلبيات واستغلال وفساد . ولكن من حيث المبدأ فان السعي في حاجة الاخ المؤمن من الامور التي حث عليها الشارع ورغب فيها .

---

(٩٤) القشيري : الرسالة ص ١٢٦ .

هنالك ايضا جوانب اجتماعية في التصوف اذا ما مورست بطريقة معينة فانها يمكن ان تعد ايجابية من ايجابياته كانشاء الخلاوي والتكايا التي يأوي اليها الضعفاء والذين لايجدون سكنا ويتعلم فيها الصغار القرآن والعلوم الشرعية ويتعالج فيها المرضي ، كما وان هنالك جوانب وبرامج ترويحيه توفرها الجماعة لافرادها تتمثل في المدائح والانشاد.

ومن الامور الايجابية في التصوف والتي يمكن الاستفادة منها هي اسلوب الدعوة عندهم الذي يتمثل في الاخذ بالمسيء حتي يستقيم فانه لايشترط للذي يود ان ينتمي الي الطريقة مستوي التزام كبير بالدين فالجماعة التي تشترط مستوي التزام كبير تصير جماعة صفوة يبتعد عنها سواد الناس وعامتهم ويصير تأثيرها محدودا ولكن اذا فهم المنتمي انه يمكنه ان يفعل ما يشاء وما يريد ويتساهل في الالتزام بالواجبات والانتهاء عن المحارم فان هذه الميزة الايجابية تصير سلبية . لكن اذا كان الهدف اصلاح الفرد وكان الاسلوب في اصلاح الفرد اخذه بالتدرج(والرفق فان هذا يكون امرا حسنا).

وينبغي ان لايكون غرض دعاة التصوف والمشايخ جمع الناس والمريدين حولهم ولكن يكون الهدف الارتقاء بافراد الجماعة روحيا وسلوكيا وفكريا وخلقيا بالاضافة الي هذا فان الاسلام في كثير من البلدان دخل علي ايدي شيوخ التصوف وان كثيرا من حركات الكفاح والجهاد ضد المستعمر قادتها حركات صوفية .

فقد انتشر الاسلام في افريقيا السوداء جنوبي الصحراء - السنغال ومالي ، والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا وتشاد انما يرجع الشطر الاكبر من الفضل فيه الي الطرق الصوفية خصوصا التجانية والسنوسية والشاذلية فكانت الرباطات التي اسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية منطلقات لنشر الدعوة الاسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الافريقية وقلبها (٩٥) وكذلك انتشار الاسلام في السودان فانما يرجع الفضل الاكبر منه الي الطرق الصوفية وذكر عبدالرحمن بدوي الاسباب التي جعلت انتشار الاسلام علي ايدي رجال التصوف فقال «ومرد هذا خصوصا الي اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد وعيشهم بين العامة والفقراء مما ابدي لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوي (٩٦) والصلاح الي جانب ما تقوم به هذه الطرق من خدمات اجتماعية والوان من البر والاحسان والمواساة والمؤاخاة

---

(٩٥) تاريخ التصوف الاسلامي ، عبدالرحمن بدوي ص ٢٥٠ .

(٩٦) المصدر نفسه .

يضاف الي ذلك نشاط بعض الصوفية في نشر الاسلام في بلاد الهند والصين وماليزيا واندونيسا (٩٧) كذلك كان للتصوف دور في الجهاد بالمرابطة في الثغور الاسلامية لحمايتها ضد المعتدين علي حدود دار الاسلام، والتصوف الاسلامي نشأ وتطور واستمر علي عهد قريب مجاهدا مرابطا والرباطات هي قلاع حربية حصينة كانت في اصلها وتطورها خنادق للصوفية المرابطين فيها للجهاد ضد اعداء المسلمين بعد ان كانت في الاصل اول رباط تجمع فيه متطوعة البصرة للدفاع عن هذا الثغر الاسلامي(٩٨).

(ويحمل لنا التاريخ مواقف جهادية للكثير من الطرق وشيوخها من ذلك خروج ابي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية وهو ضرير متقدم في السن مع سواه من علماء مصر علي رأس الجيوش لمقاتلة لويس التاسع الفرنسي زمن حكم المماليك لمصر حيث هزموه في معركة المنصورة الشهيرة).

مواطن الضعف:

يحوي بعض التراث الصوفي بدعا في العقيدة والعبادة والسلوك كاعتقاد بعضهم في نظرية الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ووحدة الاديان وقولهم باسقاط التكاليف والنذر لغير الله والغلو في الزهد والتشدد في العبادة وممارسة بعضهم الشعوذة والسحر وانتشار قصص كثيرة مختلفة عن حدوث كرامات وانتشار مفاهيم سلبية عن الكرامة ومقصدها الشرعي (الكرامة حق اذا تحققت شروطها الشرعية). ومن سلبيات الممارسة الصوفية استغلال بعض المتصوفة لنفوذهم بين اتباعهم ومريديهم ، سواء كانوا من حكام او عامة الناس، لتحقيق مصالحهم الخاصة . كما وان هنالك مخاطر عقلية ونفسية واجتماعية تنشأ من بعض ممارسات اتباع المتصوفة كميلهم للعزلة وترك الزواج والتواكل وعدم السعي للانتاج والعمل وظهور الطفيليين الذين يعتمدون علي الهبات والصدقات.

بالاضافة الي هذا فاننا نجد عدم اهتمام بين المتصوفة باعداد القوة العسكرية والاقتصادية وعدم اهتمام بالتنمية المادية التي تكون من اسباب قوة المجتمع الاسلامي والتي تكون مصدر حماية له من اعدائه والمتربصين به الدوائر يقول الله تعالي : { واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم }. (الانفال ، ٦٠).

---

(٩٧) التصوف منشؤه ومصطلحاته ـ سعد الحمراني ص ١٦٣.

(٩٨) تاريخ التصوف الاسلامي عبدالرحمن بدوي ص ٢٦.

والمؤمن القوي خير واحب الي الله من المؤمن الضعيف كما نجد اهمالا من جانب بعض المتصوفة وعدم اهتمام بالعلوم الشرعية والتجريبية والعقلية اذ يعتبرون ان مصدر المعرفة الحقيقي هو الكشف والالهام وتحصيل العلم ليس بالدراسة والتعلم - القيل والقال - ولكن بالمجاهدة والعبادة وينبغي ان لا ننسي ونحن نعدد السلبيات المتصلة بالممارسات الصوفية مبالغة بعضهم في تقدير الشيوخ والاولياء الي حد التقديس وذوبان شخصياتهم وطاعتهم لشيوخهم طاعة عمياء وينبغي ان نشير كذلك الي المظاهر غير الحسنة التي تتصل بالذكر كالصخب والزعق والاهتزاز والهياج والرقص غير اللائق.

كما ان بعض الدوائر الصوفية ارتبطت بالطائفية والعشائرية وكانت لها صلة مشبوهة مع الاستعمار ونجد ان المستعمر استطاع ان يصرف بعض المتصوفة عن الجهاد والكفاح الوطني وحركات الاستقلال . وبذلك استطاع ان يستخدمها في الهيمنة علي البلدان الاسلامية.

الخاتمة

ان الذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع هو ان كثيرا مما كتب عن التصوف لايثير المشكلات الحقيقية والاساسية في هذا المجال واذا اثارها لايعالجها وفق منهج سليم (منهج يحدد المصادر وطرق الاستنباط) وهناك سبب آخر دفعني لهذه الدراسة وهو انني وجدت كثيرا من الدراسات في هذا المجال تتسم بالتحيز وعدم الموضوعية فانتهجت من جانبي منهجا موضوعيا في معالجة القضايا الاصولية والفرعية للتصوف رغم ان بعض اصحاب التصوف يقولون ان الموضوعية لاتصلح للحكم له او عليه ولقد ناقشت هذا الادعاء نفسه بطريقة موضوعية !.

بناء علي ذلك فقد حاولت حسم قضايا الاصول التي تمثل الاساس لدراسة التصوف اولا ثم اعطيت قائمة بقضايا التصوف الجزئية مع تحليل مفصل بعض الشيء لعدد منها وتحليل مختصر لعدد آخر ولم اناقش مثلا بعض القضايا والمشكلات كمشكلة الجبر (الحتمية) وحرية الاختيار ولقد ظهر لي بعد هذه الدراسة ان بعض الامور لايمكن حسمها بطريقة قاطعة فحاولت ان اقول بالرأي الراجح وحاولت ان اوفق بين الاراء المعارضة ما امكن التوفيق.

واذا كانت رسالتي هذه قد جردت التصوف من غموضه وسريته وشاعريته بعض الشيء فانها لم تجرده من بعده الاخلاقي والنفسي والاجتماعي والروحي والديني وكنت اود ان تكون هذه الدراسة دراسة متأنية يبذل فيها وقت كاف للتمحيص والتحقيق ولكن خفت ان اشتغل بغيرها من الدراسات والنشاطات فلا تتاح لي الفرصة بنشرها وهي منقحة ومجودة وبالصورة التي ارضي عنها رضاء كاملا .

ونسأل الله ان يفيد بها ويبارك لنا في وقتنا ......

المراجع العربية

ابن تيمية : (تقي الدين احمد)

الفتاوي ، الجزء العاشر (السلوك)، جمع وترتيب عبدالرحمن قاسم وابنه محمد.

الفتاوي ، الجزء الحادي عشر (التصوف)

الاستقامة الجزء الثاني ، تحقيق محمد رشاد سالم ، الرياض، جامعة الامام محمد بن سعود. مكتبة ابن تيمية الطبعة الاولي ،١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.

العبودية ، تحقيق عبدالرحمن الباني ، المكتب الاسلامي ،١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.

المعجزة وكرامات الاولياء ، تحقيق مصطفي عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، الناشر مكتبة دار البيان ، التوزيع مكتبة المؤيد ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

ابن الجوزي : (جمال الدين ابي الفرج عبدالرحمن).

تلبيس ابليس ، ادارة الطباعة المنيرية .

ابن عربي : (محي الدين)

الفتوحات المكية ، تحقيق عثمان يحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م.

فصوص الحكم ، حققه وعلق عليه ابوالعلاء عفيفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

الكتاب التذكاري ، اشرف وقدم له ، ابراهيم بيومي ، مذكور الكتاب

بدوي : (عبدالرحمن).

الانسان الكامل وكالة المطبوعات ، الكويت الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦م تاريخ التصوف الاسلامي وكالة المطبوعات الكويت ، الطبعة الاولي ١٩٧٥م.

ابوطالب المكي: (محمد بن علي بن عطية الحارثي)
قوت القلوب ، القاهرة
البينادي: (احمد عزالدين).
الرؤيا والاحلام دار السلام الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ .
الجوزية : (ابن القيم)
مدارج السالكين ، دار الكتاب العربي ، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.
عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، دار الافاق الجديدة بيروت
الجليند : (محمد السيد)
الامام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ، الهيئة العامة لشئون المطابع ، القاهرة ، ١٣٩هـ ـ ١٩٧٣م .
الجيلاني : (الشيخ عبدالقادر) .
الفتح الرباني والفيض الرحماني ، مكتبة زهران ، القاهرة
الفنية لطالبي طريق الحق مكتبة البابي الحلبي ، مصر ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .
الجزائري: (ابوبكر)
الي التصوف ياعباد الله ، مطبعة المدني ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.
الحلاج : (ابوالمغيث الحسين بن منصور).
اخبار الحلاج ، ل. ماسينيون و ب كراوس ، مطبعة العلم ، باريس ، مكتبة لاروز ، ١٩٣٦م.
كتاب الطواسين ، ل ما سينيون ، باريس ، ١٩١٣م
شرح ديوان الحلاج ، تحقيق كامل مصطفي الشيبي ، مكتبة النهضة ، بيروت ، ١٩٧٤م.
حوي : (سعيد)
تربيتنا الروحية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م.
الحفياني : (عبدالجبار المبارك)
البراهين الجلية في جواز الاحتفال بمولد خير البرية ، الرابطة الاسلامية مشيخة الطريقة السمانية ، طابت ، السودان الطبعة الثانية .

زروق : (ابو العباس احمد بن احمد محمد)
قواعد التصوف ، صححه ونقحه محمد زهري النجار ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت.
حكم ابن عطاء الله ، تحقيق عبدالحليم محمود.
زروق : (عبدالله حسن)
قضايا التصوف الاسلامي ، دار الفكر ، الخرطوم ، ١٩٨٥م.
قضايا التصوف الاسلامي، مجلة الفكر الاسلامي، الخرطوم، ١٩٨٢م
مشكلة الجبر والاختيار في تاريخ الفكر الاسلامي ، مجلة كلية الاداب جامعة الخرطوم ، العدد الخامس ، ١٩٨٣م.
زروق : نظرية المعرفة عند الغزالي ، مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن والاربعون ١٩٨٧م، الكويت.
خصائص الاسلام (مذكرة) جامعة الملك سعود ١٩٨٧م.
السحمراني : (اسعد)
التصوف منشؤه ومصطلحاته ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
السلمي : (ابي عبدالرحمن)
طبقات الصوفية ، القاهرة ، ١٩٥٣م .
السهروردي: عوارف المعارف ، بهامش احياء علوم الدين ، دار احياء الكتب العربية ، علي البابي الحلبي .
الشاطبي : (الامام ابي اسحق ابراهيم بن موسي بن محمد اللخمي الشاطبي القرناطي)
الموافقات ، حققه عبدالله دراز ، المكتبة التجارية الكبري ، مصر
الاعتصام ، تحقيق محمد رشيد ، المكتبة التجارية الكبري بمصر.
الشعراني : (ابوالمواهب عبدالوهاب بن احمد)
الطبقات الكبري مكتبة البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م
اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر وبهامشه الكبريت

الاحمر، طبعة حلب ، ١٩٥٣م.

الاصبهاني: (ابونعيم)
حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، دار الكتاب العربي بيروت، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

الطوسي : (ابي نصر السراج)
اللمع ، حققه عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور دار الكتب الحديثه ، مصر ، ١٩٦٠م.

عطية : (عزت علي عبيد)
البدعة تحديدها وموقف الاسلام منها ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

عبدالخالق : (عبدالرحمن)
الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة مكتبة ابي تيمية الكويت

عبدالسلام: (عبدالرحمن حمزة).
شروط الطريقة التجانية ويلية ابطال مزاعم المنكرين .

عبدالله : (ليلي)
الصوفية عقيدة واهداف ، دار الوطن للنشر، الرياض ١٤١٠هـ

الغزالي : (احياء علوم الدين)، مكتبة عبدالكريم الدرويي ، دمشق نوشه.

فتاح (عرفان عبدالحميد)
نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

فروخ : (عمر)
التصوف في الاسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

القشيري : (عبدالكريم بن هوازن القشيري ابوقاسم)
الرسالة القشيرية في التصوف

قريب الله : (حسن الشيخ الفاتح)
المنهج الصوفي في التربية والدعوة الي الله ، دار الجيل ،

بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م

الكلاباني : (ابوبكر محمد)
التعرف لمذهب اهل التصوف حققه محمود امين الفوادي،
القاهرة ١٩٦٩م.

المبارك : (محمد)
في التصوف ، الخرطوم.

محمود : (عبدالقادر)
الفلسفة الصوفية في الاسلام ، دار المعارف ، ١٩٦٨م

منبيع : الفكر الصوفي في السودان،دار الفكر العربي ، ١٩٦٩م.
(عبدالله بن سليمان)
حوار مع المالكي في رد منكراته وضلالاته ، المملكه العربية

نيكلسون : السعودية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.
(ارنولد رينولوز)
في التصوف الاسلامي وتاريخه ، مجموعة مقالات ترجمها

الهلالي : ابوالعلاء عفيفي ، القاهرة ، ١٩٤٧م.
(محمد تقي الدين)
الهدية الهادية الي الطائفة التجانية ، الطبعة الاولي ١٣٩٣هـ ـ

الواعي: ١٩٧٣م.
(توفيق يوسف)
البدعه والمصالح المرسلة ، دار التراث ، الكويت ١٤٠٤م ـ

يالجن : ١٩٧٤م.
(مقداد)
فلسفة الحياة الروحية ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع
الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

المراجع الانجليزية

1.Ansari (Muhamded Abdul Hag) Sufism and Shari'ah,The

١٩٨٦, , Islamic Foundation

2. Hansel (C.E.M.), E.S.P and Parapsychology, Prometheus

١٩٨٠, Books, Buffalo, Newyork

3.Koestler (Arther), The Roots of Coincidence Published by

١٩٧٤, Pan Books,

4.M'connell (R.A),An Introduction to Parapsychology In The

١٩٨٣, Context of Science, Unversity of Pittsburgh,

5. Nozic (Robert), Philosophical Explanation Clarendon

١٩٨٤, , Press, Oxford, 1981 Reprinted

الفهـــــرست

تقديم	٢
مقدمة	٥
اهمية دراسة التصوف	٧
اصناف الدارسين للتصوف	١٠
اتجاهات دعاة الاسلام وظاهرة التصوف	١٠
الاتجاه الاصلاحي	١١
اتجاه المواجهة	١١
اتجاهات أخري	١١
اتجاه القبول	١١
اتجاهات التصوف	١٢
المعارف التي يحتاج اليها دارس التصوف	
تعريف التصوف واصل اللفظ	٢٢
تعريف التصوف	٢٣
نشأة التصوف	٢٤
اصول التصوف	٢٧
الطريقة	٣٢
البدعة	٣٣
مصادر المعرفة ووسائلها عند المتصوفة	٣٩
نظرية التصوف في تفسير النصوص	٤٥
الشطح	٤٦
معايير الحكم علي النص الصوفي	٤٧
التصوف والاخلاق	٥٢
التصوف والسعادة	٥٣

الفلسفة والتصوف ٥٤
التجربة الصوفية بين الوهم والحقيقة ٥٥
قضايا التصوف وموضوعاته ٥٦
الزهد ٥٧
العبادة والذكر ٥٨
شروط العزلة ٥٩
العزلة والصحبة (الاختلاط) ٦٠
ادلتها الشرعية ٦١
انواعها ٦٢
منافع ومحاسن العزلة ٦٣
مضار العزلة ٦٤
الحال والمقام ٦٥
التوبة ٦٦
الصبر ٦٧
التوكل ٦٨
المحبة ٦٩
الرضا ٧٠
مفارقة الرضا ٧١
الخوف ٧٢
الرجاء ٧٣
ايهما افضل الرجاء ام الخوف ٧٤
الفرق بين نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ٧٥
الفناء ٧٦
نظرية الحلول ٧٧
الاتحاد ٧٨
وحدة الوجود ٧٩
وحدة الاديان ٨٠
الولاية ٨١
الشيخ والسالك والمريد ٨٢

الكرامة	٨٣
العلاج الروحي	٨٤
مواطن القوة ومواطن الضعف في التصوف	٨٥
مواطن القوة	٨٦
مواطن الضعف	٨٧
خاتمة	٨٨
المراجع العربية	٨٩
المراجع الانجليزية	٩٠

المركز القومي للإنتاج الاعلامي

١ - سلسلة دراسات في القرآن الكريم:

صدر منها:

١/ مفهوم العلم في القرآن الكريم .... د. زكريا بشير إمام

٢/ أساليب الحِجاج في القرآن الكريم :

نماذج من الحِجج الإستنباطية .... د. زكريا بشير إمام

٣/ أساليب الحِجاج في القرآن الكريم :

قياس التمثيل القرآني :

خصائصه وإستخداماته .... د. زكريا بشير إمام

تحت الطبع

١/ نظرية التوحيد في القرآن الكريم .... د. حسن عبدالله الترابي

٢/ الظاهرة النفاقية في القرآن الكريم .... الأستاذ/ صلاح عوض

٢ – سلسلة رسائل البعث الحضاري

صدر منها:

١/ من معالم النظام الإسلامي .... د. الترابي – سليم العوا – والغنوشي
٢/ مقاصد الشريعة الإسلامية .... عبدالله محمد الأمين – ويوسف بشير أحمد
٣/ نظرات في تأصيل المعرفة .... د. التجاني عبد القادر ...
د. طه جابر العلواني – محجوب عبيد
٤/ القرآن وفلسفة السياسة .... د. التجاني عبد القادر حامد
٥/ منهجية لدراسة أصول التصوف .... د. عبدالله حسن زروق
٦/ الفكر السياسي الأسلامي والعلمانية .... د. التجاني عبد القادر حامد
٧/ العلاقات الدولية – أثرها على دولة الرسول ﷺ .. د. التجاني عبد القادر حامد

تحت الطبع

١/ أصول التفكير الإسلامي .... أمين حسن عمر
٢/ الدولة والمجتمع في الإسلام .... د. حسن سيد سليمان
٣/ المبادىء الأساسية للسياسة الشرعية ...... الشيخ/أحمد محجوب حاج نور
٤/ معوقات الاقلاع الحضاري ومحركاته .... أزهري التجاني عوض السيد
٥/ المدخل لعلوم السنة .... د. اسماعيل حسن حسين
٦/ تأصيل النظام السياسي .... د. غازي صلاح الدين
٧/ التأصيل في جانب التعليم .... عبد الباسط عبد الماجد
٨/ التأصيل في جانب التشريع .... أحمد ابراهيم الطاهر
٩/ التأصيل في الجانب الإداري .... د. الهادي عبد الصمد
١٠/ قراءات حركية للسيرة النبوية .... د. التجاني عبد القادر حامد



المركز القومي للإنتاج الإعلامي

الخرطوم - ص.ب: ٢٩٢٦

هاتف: ٧٨٢٨٤٥ - ٧٨٢٨٤٦ - ٧٨٢٨٤٨